

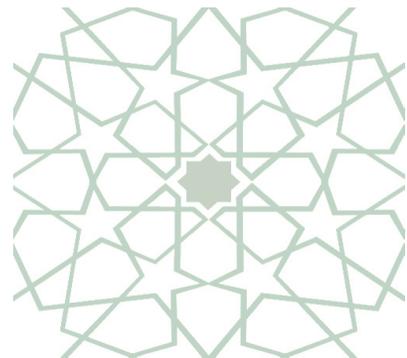
«سنة الله في القلّة والكثرة في ضوء القرآن الكريم

وموقف المسلمين منها بين الوعي والوعي»

تأليف : د. رمضان خميس زكي الغريب
أستاذ مشارك في الأزهر، وجامعة قطر



الطبعة الأولى: ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م



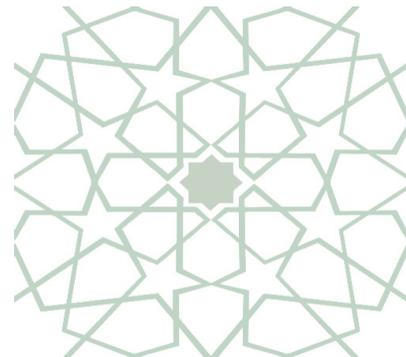


الطبعة الأولى: ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمؤسسة وعي للدراسات والأبحاث
الدوحة - قطر



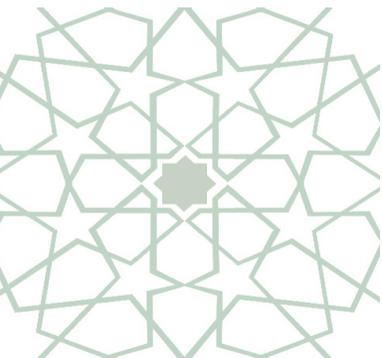
«الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر
مؤسسة وعي».

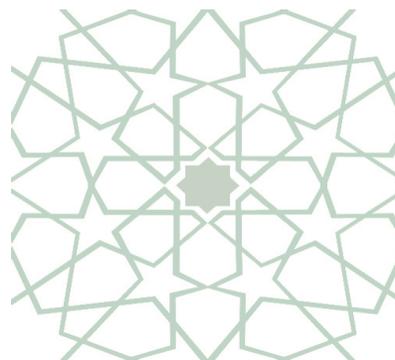


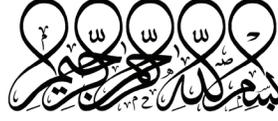


﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ
كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة: ٢٤٩]







مقدمة

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة وهداية للعالمين، محمد ﷺ وآله وصحبه والتابعين، اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا، ونلوذ بحولك وطولك وقوتك، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا وأعمالنا وحركاتنا وسكناتنا لك خالصة إنك على كل شيء قدير، اللهم إنا نسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ونسألك مرافقة النبيين في الجنة...

أما بعد: فإن المسلمين اليوم، وكل يوم في أمس الحاجة إلى استلهام رأي القرآن الكريم في قضاياهم وتصوراتهم، وهم اليوم يعيشون عصراً تتنازع الأفكار من كل صوب، وتتناوشه النظريات البشرية من كل حذب، وفي هذا الضجيج من الرؤى المتباينة، والتقدم التقني الباهر يشعرون بالقلّة والذلة، وبعضهم يشعر فكراً أو عملياً بأن التدين عامة سبب من أسباب الرجوع الحضاري، خالطين بين ديانات عزلت أصحابها عن واقع الحياة وحرّمت بل جرّمت التقدم والعلم والمعرفة، وما نهض أتباعها إلا بعد أن قالوا: (اشنقوا آخر قيصر بأمعاء آخر قسيس)، وبين دين أول كلماته: (اقرأ)، وتكررت فيه الدعوة إلى عمارة الأرض وإثارة خيرها وارتفاق عطائها والسير في مناكبها، أكثر مما تكرر فيه الحديث عن الأحكام والفروع، فالفروع وحديث القرآن الكريم عنها لا يتجاوز ١١/١ من مجموع آيات القرآن الكريم، هي مجمل آيات الأحكام تقريبا، أما عمارة الأرض وخلافة الحياة فيدور أغلب القرآن الكريم عليها وما يقدم لها وما يدور حولها من بناء الإنسان الصالح الذي يُصلح الأرض بصلاح نفسه، ويربطها بارتباطه هو بالله رب العالمين.

أولا أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تبدو أهمية الموضوع من خلال النقاط الآتية:

١- أثر الوعي بسنة الله -تعالى- في القلّة والكثرة في تغيير مفاهيم الناس ورؤاهم وتصوراتهم، ومن ثم في أفعالهم وسلوكهم بما يتناسب مع سنن الله الجارية والخارقة في القلّة والكثرة.

٢- تحديد مهمة القلّة في نُهضة الأمم من عثرتها وقيامها من كبوتها شأن القلّة في كل زمان ومكان، والتي تسميها السنة المطهرة: (الراحلة).

٣- حاجة الأمة اليوم إلى هذه الريادة الفكرية والعلمية والعملية التي تأخذ بيدها لتنهض من الوهدة، وتقال من العثرة، وتقوم من تلك الكبوة التي تردت فيها إثر بعدها كلاً أو بعضاً عن منهاج الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

ولدراسة هذه القضية أسباب دفعتني إليها، منها:

١- التأكيد الذي لا يُمل منه: أن المرجعية العليا للمسلمين في تصوراتهم ومنطلقاتهم، ومعاشهم، ومعادهم، هي القرآن الكريم، يفيدون منه حُكمه في كل قضية، وفصله في كل مسألة.

٢- أثر غياب هذه المرجعية من أذهان بعض المسلمين في الهزيمة النفسية، والتراجع الفكري، وبدؤهم من الصفر، دون الإفادة من عطاء القرآن وهديه مما يوفر عليهم تجارب بشرية ثبت فشلها حتى عند أصحابها.

٣- أثر المدينة الغربية في بَهْرها وقَهْرها لكثير من المسلمين، وزعزعة بعض المفاهيم لديهم، وشعورهم بالقلّة نحوها.

٤- تأكيد القرآن والتاريخ والواقع المعيش: أن نُهضات الأمم تقوم على القلّة الفاعلة المؤثرة.

ثانياً مشكلة البحث:

تدور مشكلة البحث حول توصيف وتوظيف آيات القرآن الكريم لسنة الله ﷻ في القلّة والكثرة، وبيان موقف المسلمين من الوعي بهذه السنة، والسعي بها في التدافع الحضاري بين الحق والباطل، ومدى إفادتهم من منهجية القرآن الكريم لبيان هذه السُننِيّة في تلك القضية.

ثالثاً أسئلة البحث:

السؤال الأساس لهذه الدراسة هو:
ما سنة الله في القلة والكثرة؟ وما موقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال؟ ويتفرع عنه أسئلة أخرى هي:

- ١- ما مفهوم القلة والكثرة في القرآن الكريم؟
- ٢- ما دوران القلة والكثرة في القرآن الكريم؟
- ٣- ما مدى ظهور الجانب السنني في القلة والكثرة؟
- ٤- ما موقف المسلمين من السننية في القلة والكثرة، وإفادتهم منها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة؟
- ٥- ما موقف القلة المحمودة من الريادة للأمة المسلمة؟

رابعاً أهداف الدراسة:

- يمكن حصر أهداف الدراسة من خلال الإجابة على الأسئلة السابقة في الآتي:
- ١- تحديد مفهوم سنة الله في القلة والكثرة في اللغة والقرآن الكريم.
 - ٢- معرفة دوران كلمة القلة والكثرة في القرآن الكريم.
 - ٣- إبراز الجانب السنني في القلة والكثرة من خلال حديث القرآن الكريم عنهما.
 - ٤- أثر الوعي بالجانب السنني للقلة والكثرة في الشهود الحضاري للأمة المسلمة.
 - ٥- ريادة القلة المحمودة لهضة الأمة كما يصورها ويدعمها القرآن الكريم.

خامساً: حدود الدراسة:

تقتصر الدراسة على حصر الآيات التي تتناول القلة والكثرة وتمضي على المنهج الموضوعي الوسيط الذي يسعى إلى حصر الآيات الجامعة للصورة القرآنية الشاملة عن سننية القلة والكثرة في القرآن الكريم، والاستعانة على فهم ذلك بالتفسير المعتمدة، والعلوم الإنسانية المتاحة، وما أنتجه علم الاجتماع الإسلامي حسب الطاقة البشرية.

سادساً: منهج البحث وأداته:

يستخدم الباحث المنهج الوصفي والاستقرائي والاستنباطي، حسب طبيعة التناول، وكانت أداته جمع الآيات ذات الصلة بالموضوع، وتحليلها، واستنباط الخصائص، والسمات، والأسباب، والشروط، والأهداف المتعلقة بسنة الله في القلة والكثرة، اعتماداً على ما كتبه

علماء التفسير واللغة، وما يدعم ذلك من ومضات السنة النبوية المطهرة، وما يخدم هدف البحث من الدراسات الإنسانية، دون الإفراط في الشروح؛ حرصاً على عدم خروج البحث عن مساره.

وحرّصت على جمع الآيات المتعلقة بالموضوع، ثم تصنيفها من حيث أجمعها للقضية، ورببتها من حيث المكئية والمدنية، حتى تعطي صورة كاملة عن القضية - والزمن جزء من رسم تلك الصورة الصادقة-، وحرّصت على أن تكون العناصر المعنونة من صميم الآيات القرآنية؛ جرياً على المعتمد من المناهج في هذا اللون من ألوان التفسير الموضوعي^(١)، أما في الشرح والاستنباط، فأفدت من كتب التفسير في كل المدارس من مآثور ورأي، فمررت على مدارس متعددة وألوان متباينة، زماناً، ومكاناً، واتجاهاً، ومنهاجاً، وفكراً، كما أفدت من السنة، وهي الشارح المبين والمبين لآيات القرآن الكريم، وأفدت مما قدمه الجهد البشري من دراسات إنسانية أو عربية في هذا الصدد، حسب الطاقة والوسع، وحسب طبيعة الدراسة.

سابعاً: الدراسات السابقة:

الحق أني لم أقف على دراسة علمية تتناول جانب السنن في القلّة والكثرة، وكل ما وقفت عليه مقالات ورصد لآيات القلّة والكثرة، ومن تناول القلّة والكثرة في دراسة علمية تناولها من جانب أصولي أو من جانب لغوي بعيد عن قضية الدراسة هنا.

ثامناً: هيكل البحث:

اشتمل البحث على مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة.

الفصل الأول: القلّة: مفهومها وصفاتها وسنن الله فيها، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم سنة الله في القلّة، في اللغة، والقرآن، وورود لفظة القلّة ومرادفاتها في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: القلّة المحمودّة وصفاتها في القرآن الكريم.

(١) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، لأستاذنا د عبد الستار فتح الله سعيد ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط الثانية، ١٤١هـ، ١٩٩١م، ص ٩٥، ٠٦.

المبحث الثالث: القلة المذمومة وصفاتها في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: ملامح السننية في القلة.

الفصل الثاني: الكثرة: مفهومها، وصفاتها، وسنن الله فيها،

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم سنة الله في الكثرة في اللغة والقرآن، وورود لفظة الكثرة ومرادفاتها في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الكثرة المحمودة وصفاتها في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الكثرة المذمومة وصفاتها في القرآن الكريم

المبحث الرابع: ملامح السننية في الكثرة.

الفصل الثالث: موقف المسلمين من سنة الله في القلة والكثرة، بين الوعي والسعي،

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: زيادة القلة العاملة وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة في ضوء

سنة الله في القلة والكثرة

المبحث الثاني: فقه صناعة القلة الرائدة في ضوء سنة الله في القلة والكثرة.

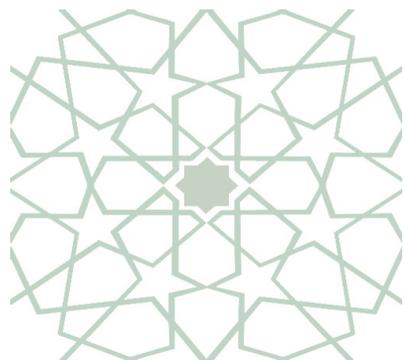
الخاتمة، وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

والله من وراء القصد

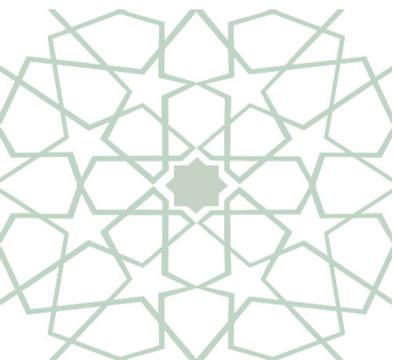


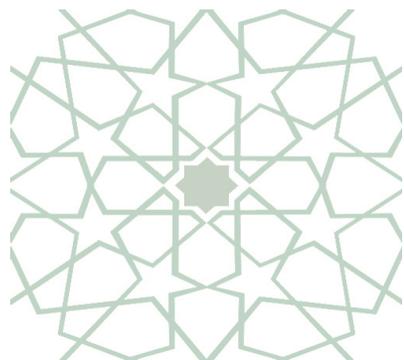




الفصل الأول:

القلّة: مفهومها، وصفاتها،
وسنن الله فيها.





الفصل الأول

القلة: مفهومها، وصفاتها، وسنن الله فيها، وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول

مفهوم سنة الله في القلة، في اللغة والقرآن، وورودها ومرادفاتها في القرآن الكريم.

مفهوم سنة: السنة (هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتباً على سلوك البشر).^(١)

القلة في اللسان العربي:

وردت القلة ومادتها في اللسان العربي دالة على عدد من المعاني نريد أن نقف أمامها، ونفيد من خلالها ما يعيننا على حسن التعامل مع سنة الله ﷻ في القلة في القرآن الكريم، فالتصور أساس السلوك، والحكم على الشيء فرع عن تصوره. ومن تتبع اللسان العربي، عبر لسان العرب، وأساس البلاغة، والخصائص، والتهذيب، والمقاييس، وما دار حول ذلك من معاجم وقواميس نجد الكلمة تدور حول هذه الدلالات: تدل المادة على الارتفاع، وعلى العلو، والتفرد، والانفراد، وتدل على أنها معتمد غيرها، وارتفاع غيرها بها، وقمة الشيء وأعلاه، والنهضة من عشرة، والنهوض من علة، والنهوض من فقر، والسرعة، والخسة والدناءة، الندارة، وعدم الاستقرار، والنقص، والصغر. يكنى بها عن العزة وتدل على الجهالة.

(١) مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير: للباحث، ط: مكتبة الشروق الدولية، بتقديم د. محمد عمارة،

وأورد هنا من نصوص اللغة ما يؤيد ما قلناه دون إغراق في النقل، بل ما تمس إليه الحاجة، وتوجبه ضرورة الاعتماد والاستناد، ونحيل في النصوص المتشابهة على الأقدم زمنا، فالكل يمتح^(٢) من إناء واحد وإن اختلفت المشارب والموارد: غرfa من البحر أو رشفا من الديم.

قَالَ اللَّيْثُ: «قَالَ الشَّيْءُ يَقْلُ قَلَّةً، فَهُوَ قَلِيلٌ، وَقُلَالٌ، قَالَ: وَرَجُلٌ قُلٌّ: فَصِيرُ الْجَنَّةِ». وَقَالَ غَيْرُهُ: «الْقُلُّ مِنَ الرِّجَالِ: الْحَسِيسُ الدَّنِيءُ. وَفِي الْحَدِيثِ: (الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَهُوَ إِلَى قُلٍّ) (٣) أَي: إِلَى قَلَّةٍ. قَالَ اللَّيْثُ: وَقُلَّةٌ كُلُّ شَيْءٍ: رَأْسُهُ، وَقُلَّةُ الْجَبَلِ: أَعْلَاهُ.» (٤)

فهنا تدل كما هو واضح على القصر، والخسة، كما تدل على الارتفاع والعلو.

و (قَلَّ الشَّيْءُ يَقْلُ قَلَّةً، وَهُوَ قَلِيلٌ. وَالْقُلُّ: الْقَلَّةُ، كَالذَّلِّ وَالذَّلَّةُ... وَفُلَانٌ قُلٌّ ابْنُ قُلٍّ، إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ هُوَ وَلَا أَبُوهُ... وَالْقَلَّةُ: قَلَّةُ الْجَبَلِ، وَاسْتَقَلَّ الْقَوْمُ: مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ.) (٥)

وهنا تدل تلك النصوص على جهالة الموسوم بالقلّة، وعدم معرفة أصوله، وتدل على الارتفاع، والعلو، والسير قدما.

الفرق بين اليسير والقليل:

(القلّة تفتضي ثقصان العدد يُقال قوم قليل وقليلون، ومن القرآن (لشرذمة قليلون) يُريد أن عددهم ينقص عن عدّة غيرهم وهي نقيض الكثرة وليست الكثرة إلا زيادة العدد وهي في غيره استعارة وتشبيه واليسير من الأشياء ما يتيسر تحصيله أو طلبه ولا يقتضي ما يقتضيه القليل من ثقصان العدد ألا ترى أنه يُقال عدد قليل ولا يُقال عدد يسير ولكن يُقال مال يسير لأن جمع مثله يتيسر فإن استعمل اليسير في موضع القليل فقد يجري اسم الشيء على

(٢) المئخ: جذبتك الرشاء مُدُّ بيدٍ وتأخذ بيدٍ على رأس البئر. والإبل تُمخ في سيرها، أي: تراوح بأيديها وتتمخ، العين: (٣ / ٦٩١).

(٣) والحديث: أخرجه ابن أبي شيبة في المسند: ٧٠٢/١. وهو حديث صحيح، شريك - وهو ابن عبد الله النخعي - وإن كان سيئ الحفظ - متابع. وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح. حجاج: هو ابن محمد المصيصي الأعور، والركين بن الربيع: هو ابن عميلة الفزاري الكوفي. وأخرجه الحاكم ٧٣/٢ من طريق الإمام أحمد، بهذا الإسناد، لكن تحرف فيه شريك إلى إسرائيل وأخرجه أبو يعلى (٢٤٠٥) و (٨٤٣٥) و (٩٤٣٥)، والشاشي (٨٠٨)، والطبراني في «الكبير» (٨٣٥٠١)، وابن عدي في «الكامل» ٣٣٣١/٤ من طرق عن شريك، به. وأخرجه ابن ماجه (٩٧٢٢)، والشاشي (٩٠٨)، والطبراني في «الكبير» (٩٣٥٠١)، والحاكم ٧٣/٢ و ٧١٣-٨١٣ من طريق إسرائيل، عن الركين، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) تهذيب اللغة (٨ / ٢٣٢)، مقاييس اللغة: ٥/٣.

(٥) مجمل اللغة لابن فارس: (ص: ٦٢٧).

عَيْرِهِ إِذَا قَرَبَ مِنْهُ^(٦)

وَقَدْ يَقْصُرُ الثُّلُ الْفَتَى دُونَ هَمِّهِ وَقَدْ كَانَ لَوْلَا الثُّلُ طَلَّاعَ أَنْجِدِ^(٧)

وإذا انتقلنا إلى الراغب الأصفهاني في المفردات وجدناه يرى أن: (القلّة والكثرة يستعملان في الأعداد، كما أنّ العظم والصّغر يستعملان في الأجسام، ثم يستعار كلّ واحد من الكثرة والعظم، ومن القلّة والصّغر للآخر... ويكتفى بالقلّة عن الدلّة اعتباراً بما قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصا وإنما العزّة للكثير^(٨)

(وعلى ذلك قوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [سورة الأعراف/ ٨٦] ويكتفى بها تارة عن العزّة اعتباراً بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ/ ١٣] ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص/ ٢٤]، وذلك أنّ كلّ ما يعزّ يقلُّ وجوده. والثقل: ما أقلّه الإنسان من جرّة وحبّ، وقلّة الجبل: شعفه اعتباراً بقلته إلى ما عداه من أجزائه،^(٩)

ويقولون: (وصعدوا قلّة الجبل وقلل الجبال، وفرس قلقل: سريع. ورجل قلقل: خفيف ماض. ومن المجاز: هو مستقلّ بنفسه إذا كان ضابطاً لأمره. وهو لا يستقلّ بهذا الأمر: لا يطيقه. واستقلّوا عن ديارهم، واستقلّت خيامهم، واستقل القوم عن مجلسهم، واستقلّوا في مسيرهم. واستقلّ الطائر في طيرانه... واستقلّ البناء: أناف، وبناء مستقل. واستقل فلان غضباً: شخص من مكانه لفرط غضبه، وقيل: هو من القلّ: الرعدة. وبلغ الماء قلّة رأسه، وهم يضربن القلل، ورجل طويل القلّة وهي القامة. ورجل قليل: صغير الجثّة... ونسوة قلّاتل، ورجل قليل. وقوم أقلّة: خسّاس. وهو يقلّ عن كذا: يصغر عنه. وتقلقل في البلاد: طالت أسفاره. وقلقل الحزن دمعي: أساله.^(١٠) وصاحب البصائر يرى معاني قريبة من المعاني التي نص عليها أصحاب اللسان والمفردات^(١١)

(٦) الفرق اللغوية للعسكري: (ص: ٢٥٢).

(٧) المخصص: (٤/ ٥٤).

(٨) البيت للأعشى يفضّل فيه عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة في المنفرة التي جرت بينهما، ومطلع القصيدة:

شاقتك من قتلة أطلالها ... بالشط فالوتر إلى حاجر

(٩) المفردات: ١/ ٠٨٦.

(١٠) أساس البلاغة: (٢/ ٩٩).

(١١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤/ ٢٩٢.

ومن هذه التطوافة في كتب اللغة ندرك أن القلة تستعمل في المعاني السابقة، ومن تتبع آيات القرآن في بيان معنى القلة نجد أن القرآن الكريم تناولها بهذه الصورة أيضا، كما سيرد ذلك في حديث القرآن عن القلة، ودوران الكلمة فيه، وهذا يشير أيضا إلى أن حديث القرآن عن القلة تناول جوانبها ودلالاتها اللغوية، كما سنقف عليه بعد إن شاء الله.

ألفاظ القلة ومقارباتها في القرآن الكريم

ورد التعبير عن القلة في القرآن الكريم بعبارات متعددة دارت حول ما يأتي:

- ١ - قليل، بمواطنه المتنوعة، وصوره المتعددة: (قليلًا، قليل، قليلون، قليلة، أقل)
- ٢ - شذمة.
- ٣ - أمة.
- ٤ - فريق.

كما وردت الدلالة على القلة بالنص على العدد، مثل: قال رجلان، سبعين رجلا، عشرون صابرون، مائة صابرة، دراهم معدودة، اثني عشر نقيبا، أو باستخدام لفظة تدل على القلة مثل: يستضعفون، يسير، قنور، أو التركيب الدال عليها مثل التبعض، والاستثناء... ونحو ذلك.

أنواع القلة في القرآن الكريم:

وقد تناول القرآن الكريم الحديث عن القلة تناولًا واضحًا يبين خصائصها ويبرز سماتها، وبالتأمل في حصر الآيات التي تدل على القلة صراحة أو ضمنا يمكننا أن نقسم القلة إلى نوعين جامعين:

النوع الأول: القلة المحمودة:

وهي التي ورد التعبير عنها في القرآن الكريم في مقام المدح لأصحابها، والدلالة على أنهم تفردوا بسمات واتصفوا بصفات يرضاها الله ﷻ ويدعو إليها، سواء كانت تلك الصفات زيادة وسبقًا في وقت يندر فيه سبق والريادة، أو إيمانًا يستحق أن يؤيده الله ويأوي أهله، ويرزقهم من الطيبات لعلهم يشكرون، أو ثباتًا في ميدان القتال والجهاد في سبيل الله، أو يقينا صادقًا في نصرة الله على الرغم من قلة العدد والعدد، أو دواما على الأمانة وبعدا عن الخيانة، أو سبقهم في العلم والمعرفة، أو شكرهم على العطاء مع قلة الشاكرين وكثرة الجاحدين، أو عدالتهم في الشركة

والخلطة، وبعدهم عن البغي على الخطاء، أو رضاهم بما قسم الله لهم من زخرف الدنيا وزينة الحياة، مع إيمانهم ورؤيتهم لكثرة مال الكافرين الجاحدين وولدهم، ونحو ذلك مما سنقف عليه تفصيلاً عند تناول الآيات الكريمة إن شاء الله.

النوع الثاني: القلة المذمومة:

وهي التي ورد الحديث عنها بصورة تنفر منها، وتبعد عنها، وتدل على اتصاف أصحابها بصفات لا يرضاها الله ﷻ، ولا تقبلها الفطر السوية، والنفوس الأبية، ينعى القرآن على أصحابها، ويحذر من مغبة الميل إليها، مثل وصف ما لدى المفتزين بأنه ليس فلاحاً بل متاع قليل، لا يلبث أن يزول ويحول، أو أن أمانهم لا يستمر، وعدوانهم على المرسلين لا يدوم، بل عما قليل ليصبحن نادمين، نادمين على إنكارهم وشنيع صنيعهم مع الأنبياء والمرسلين، أو وصف شكرهم مع عظم ما ينعم به عليهم بأنه قليل، لا يتناسب مع حقيق الشكر وواجب الاعتراف، أو وصف التذکر الصادر من بعض البشر بأنه قليل على الرغم من توفر دواعي التذکر، وأسباب التفکر، أو النكير عليهم أنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فيشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا زائل، وعطاء من الحياة حائل، أو وصف متاع الحياة بأنه في جنب الآخرة قليل، أو النعي على بني إسرائيل بأنهم لا يؤمنون إلا قليلاً، أو وصف متعتهم وفرحهم في الحياة بأنه قليل، أو أنهم لا يأتون البأس إلا قليلاً، ونحو ذلك مما سيتضح عند تناول الآيات الكريمة بإذن الله.

ولنتناول أولاً القلة المحموده وصفاتها في الصفحات القادمة:

المبحث الثاني

القلة المحموده صفاتها وخصائصها في القرآن الكريم

ومن خلال تتبع الآيات الكريمة يمكن أن نتبين القلة المحموده ، وأهم سماتها على النحو التالي:

القلة هم الخلاصة المصطفاة والبقية المنتقاة

القلة المحموده هي في كل مكان الخلاصة المصطفاة، والبقية المنتقاة، المنتقاة من كل شيء: زمانا، ومكانا، وأفرادا، ومعادن، هم الرواحل التي تتحمل إذا كَلَّ غيرها، وتصبر إذا مَلَّ سواها، تحمل حملها وكثيرا من حمل غيرها، فهي الرائدة في المتاهة، وهي القائدة في اضطراب الأمور، ولقد قيل في واحد من مثل هذه النماذج، وهو صاحب عمامة علمية رائدة:

أولت عمامتك العمائم كلها فخرًا تقاصر دونه التيجان
إن الزعامة والطريق مَحُوفَةٌ غيرُ الزعامة والطريق أمان

تلك القلة هي التي تقل عند الطمع، وتكثر عند الفزع، فهم - بحق خلاصة جنسهم، وبقية نوعهم، ولقد تبين من خلال سَوَق القرآن الكريم لتلك النماذج القليلة ما يؤكد تفردهم وندرتهم، وقلتهم (بما تعنيه مادة القلة من دلالة) فيما يتصفون به، وإذا طالعنا القلة التي عبرت البحر مع طالوت، عرفنا إلى أي مدى تتضح فيهم تلك الصفة، فهم قلة لكنهم هم، هم وحدهم الذين عبروا النهر مع طالوت، وهم هم وحدهم الذين أدركوا واعين قوانين الله في النصر والهزيمة إدراكا عمليا، وإن أدركه غيرهم إدراكا ثقافيا معرفيا، وسيبين لنا في الصفحات القادمة كم كانوا واعين بل واعبين^(١٢) لقيم ينذر أن يجمعها سواهم، ويقل وجودها فيمن عداهم، وتلك من سنن الله ﷻ في خلقه وناموسه في عباده، لقد سئل الحسن عن الذين عبروا النهر: (أَلَيْسَ الْقَوْمُ جَمِيعًا كَانُوا مُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاوَزُوا؟! فَقَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ تَفَاضَلُوا بِمَا شَحَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنَ الْجَهَادِ فِي سَبِيلِهِ)^(١٣).

(١٢) وعب الشَّيْءَ وعبا وأوعبه: واستوعبه: أخذه أجمع، المحكم والمحيط الأعظم: (٢/ ٧٧٣).

(١٣) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (١/ ٨٤٢).

فالذين عبروا النهر كانوا كلهم مؤمنين لكن الذين صبروا، وصابروا، ودعوا غيرهم إلى المصابرة هم خلاصة هؤلاء، فهؤلاء الَّذِينَ يَطُؤُونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا اللَّهَ (أي: يَتَيَقَّنُونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا اللَّهَ) ويتوقعون ثواب الشهادة وهم الخُلصُ من أهل البصيرة، قالوا: لا تفرغوا من كثرة عددهم كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَعُونَتِهِ، ... وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بالنصر والمعونة).^(١٤)

و(كذلك الخواص في كل وقت يقل عددهم ولكن يجلب قدرهم).^(١٥) وتلك القلة التي يصطفئها الله ﷻ هي الخلاصة التي يقوم عليها بناء الحياة، وتنهض بها الريادة والقيادة، وتتقدم الأمم، وتستعاد القيم، والمتأمل لكل قليل في الحياة والأحياء يجده بقية جنسه، وخلاصة نوعه، فالذهب سيد المعادن وهو بينهم قل، والأنبياء هم رواد الأمم وهم بين أقوامهم قلة، والدعاة الصادقون هم الأدلاء للبشر وهم بين المدعويين قلة، والأزمات المفضلة بين سائر الأزمنة قلة، والأماكن المقدسة بين الأماكن قلة:

تعيرنا أننا قليل عديدا	فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل
وما مات منا سيد حتف أنفه	ولا ظل منا حيث كان قتيل
إذا مات منا سيد قام سيد	قؤول لما قال الكرام فعول ^(١٦)

فهذه القلة على الرغم من أنها في عين غيرها قلة، إلا أنهم في واقع العمل كثرة؛ لأنهم قلة عاملة، (والقلة العاملة تهزم الكثرة النائمة).

هم المنصورون في كل زمان

المتبوع لآيات القلة في القرآن الكريم، والراصد لطبيعة القلة في واقع الحياة والأحياء يجد أن القلة العاملة في كل زمان هم المنصورون، لما يشتملون عليه من سمات وخصائص، تعوض قلة عددهم بكثرة يقينهم واعتمادهم، وببذلهم ما لا يبذله غيرهم من الكثرة النائمة الهائمة، التي تقف عند حدود الشكل والمظهر فتغرهم كثرتهم ويخدعهم عددهم، والراصد لنصر المؤمنين في غزواتهم كلها يجد أنهم لم يبلغوا عدد عدوهم، بل لم يتعدوا ثلث عدوهم،

(١٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (١/ ٧٧٢).

(١٥) لطائف الإشارات: (١/ ٣٩١).

(١٦) البيان والتبيين: ٢٨١/٣، والعقد الفريد: ١/ ٦٣٢.

والمعركة الوحيدة التي قالوا فيها (لن نغلب اليوم من قلة) ^(١٧)، هي المعركة التي سجل القرآن الكريم عليهم فيها الهزيمة، ونسبها إلى هذه الكثرة المعجبة، والعدد الذي اعتمدوا في حسابهم عليه، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَّتْ لَكُمْ وَاللَّهُ يَكْتُبُ لِمَن يَشَاءُ﴾ سورة التوبة: (٢٥). (فالقليل من ذوي العزائم الصادقة والنفوس التي أشربت حب الإيمان وامتلأت غيرة عليه - يفعل ما لا يفعله الكثير من ذوى الأهواء المختلفة، والنزعات المتضاربة) ^(١٨)

وسر ذلك أن القلة المحمودة لها حساب آخر غير حساب الكثرة المعتمدة على عددها وعددها، (وقد يكون عدوك كثيراً لكن ليس له رصيد من ألوهية عالية، وقد تكون في قلة من العدد، لكن لك رصيد من ألوهية عالية، وهذا ما يريد الحق أن يلفتنا إليه بقوله: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً}. كلمة {إِلَّا قَلِيلاً} جاءت لتخدم قضية، لذلك جاء في آخر القصة قوله تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة: البقرة: ٢٤٩]، أي: أن الغلبة تأتي بإذن الله، إذن فالشياء المرئي واحد، لكن وجهة نظر الرائي فيه تختلف على قدر رصيدهم الإيماني ... فالعدو قد يكون كثيراً أمامنا ونحن قلة، وكلنا رأى العدو كثيراً ورأى نفسه قليلاً، لكن المواجهيد تختلف أنا سأحسب نفسي ومعى ربي، وغيري رآهم كثيرين وقال: لا نقدر عليهم؛ لأنه أخرج ربه من الحساب. ^(١٩)

وإذا تتبعنا عدد القلة في جيش طالوت الذين كتب لهم وبهم النصر على جالوت وجنوده وجدناهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً، (أخرج سعيد بن منصور عن عثمان بن عفان أنه قرأ {فَنَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ} قَالَ: الْقَلِيلُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشْرٍ عَدَّةُ أَهْلِ بَدْر). ^(٢٠)، (لأن المقاييس ليست بكثرة الجمع، ولكن بنصرة الحق سبحانه وتعالى) ^(٢١) والفئة القليلة تكون قلتها في الظاهر المرئي للناس أما القوة المعنوية والروحوية والتي هي أساس النصر فتلك لها مقاييس أخرى، مقاييس البصيرة لا البصر، فالإمداد على قدر الاستعداد، (والفئة القليلة تكون قلتها في الأفراد والعناد وكلّ لوازم الحرب، والفئة الكثيرة، تظهر كثرتها في العدة والعدد وكلّ لوازم الحرب، والفئة القليلة إنما تغلب بإذن الله تعالى. وهكذا يوضح الحق سبحانه أن الأسباب تقضي بغلبة الفئة الكثيرة، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه

(١٧) انظر مسند البزار: ٨٢١/٣١، ومستخرج أبي عوانة: ٨١٢/٤.

(١٨) تفسير المراغي: (٢/٣٢٢).

(١٩) تفسير الشعراوي: (٢/٤٤٠١).

(٢٠) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (١/٠٦٧).

(٢١) تفسير الشعراوي (٢/٤٤٠١).

الله ﷻ (٢٢)

ولأمر ما ذكر الله ﷻ تلك النماذج في القلّة لجليل النصر الأول؛ يفيدون منه، ويقفون عنده، ويقيمون دولتهم على أساس تلك المفاهيم التي تبني الحضارة وتنشئ الاستمرار الحقيقي في قيادة الدنيا باسم الدين.

وحري بمن انتدب نفسه لبلاغ رسالة الله للناس واستهدف إنارة الدنيا بالدين أن يعي هذه المفاهيم، حتى لا تبهره الكثرة فتقهره، فينتقل من دور المبهور إلى دور المقهور أو المسحور، أو إلى دور الحمامة ينظر إليه الثعبان فننشل وتنحل وكان بمكنتها أن تطير، وواقع الأمة المسلمة اليوم ونظرتها للعالم الغربي خير شاهد على هذا، فوعي المسلم بسنة الله في القلّة والكثرة يقيه هذه النظرة ويعفيه من تلك الوهدة.

أهل اختبار وابتلاء

ميزات القلّة وصفاتهم لا تأتي هكذا ضربة لازب، ولا تكون لكل حي، بل بعد تضحيتهم بما لا يضحى به غيرهم، وصبرهم على ما لا يصبر عليه سواهم، فالقلّة تأتي بعد اختبار ينخل الغث من السمين، ويميز الخبيث من الطيب.

من هنا تتعرض القلّة للتمحيص والابتلاء فيفوز بوصفها من تحقق بصفاتها، ويعد عنها من لا يستطيع دفع مهرها، ولذا تعرض بنو إسرائيل مع طالوت للاختبار والابتلاء، حتى يتبين الصابر المجاهد من الخائر الجبان، والمقدام الجسور من الخائف الرعديد (فَالْمُقْصُودُ مِنْ هَذَا الْإِبْتِلَاءِ أَنْ يَتَمَيَّزَ الصَّادِقُ عَنِ الزَّانِدِيقِ، وَالْمُؤَافِقُ عَنِ الْمُخَالِفِ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ يَكُونُونَ أَهْلًا لِهَذَا الْقِتَالِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَشْرُبُونَ مِنْ هَذَا النَّهْرِ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَادُونًا فِي هَذَا الْقِتَالِ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِمْ نَفْرَةٌ شَدِيدَةٌ عَنِ ذَلِكَ الْقِتَالِ، لَا جَرَمَ أَقْدَمُوا عَلَى الشُّرْبِ، فَتَمَيَّزَ الْمُؤَافِقُ عَنِ الْمُخَالِفِ، وَالصَّادِقُ عَنِ الْعَدُوِّ). (٢٣)

ولكل اختبار نتيجة، ولكل بلاء عطاء، ولكل شدة رضاء، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وتأتي نتيجة اختبار القلّة في هذا الموقف مباشرة إذ يصبر على القتال من لم يشرب من النهر أصلاً، ويتردد من اعترف غرفة بيده، ولا يقوى على العزم فضلاً عن السير والقتال من عب وأترع، فبشم وترنج، وأخلد إلى الأرض غير مأسوف عليه؛ ذلك أن من لم يصبر على الماء كيف يصبر على بذل الدماء؟!، ومن لم يتحمل العطش كيف يتحمل وهج

(٢٢) تفسير الشعراوي: (١١ / ٦٥٤٦).

(٢٣) مفاتيح الغيب: (٦ / ٩٠٥).

السيوف وتطاير الأعضاء؟!، (فمن ظهرت طاعته في ترك الماء، علم أنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلبته شهوته في الماء، وعصى الأمر، فهو بالعصيان في الشدائد أخرى ورخص للمطيعين في العزفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الإرتفاع، وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال.

ولقد أحسن من شبه الدنيا بنهر طالوت، فمن اغترف منها غرفة بيد الزهد، وأقبل على ما يعينه من أمر آخرته، نجا، ومن أكب عليها، صدته عن التأهب لآخرته، وقلت سلامته إلا أن يتداركه الله. (٢٤)

(وحكمة هذا الامتحان: ليتخلص للجهاد المطيعون المخلصون، إذ لا يقع النصر إلا بهم). (٢٥)

هم دائماً لحمة واحدة

المتبع للقلعة وواقعها يجد أنها لحمة واحدة، وسبيكة متماسكة، انصهر بعضها في بعض، يحرص كل منهم على الآخر، ينصحه ويعظه ويرشده ويهديه، ذلك ما صنعته القلعة مع طالوت، وهذا ما عاشته القلعة مع النبي ﷺ، ومن طالع سيرة القلعة معه ﷺ عرف حالهم بعضهم مع بعض، يعرض الواحد على أخيه ماله، ومتاعه، وزرعه، وضرعه، وعلى الجانب الآخر يتأبى أخوه فالأول يعطي في سخاء والآخر يتعفف في إباء، وبمثل تلك النماذج التي تعطي الواجب قبل أن تطالب بالحق، وتعيش بالفضل قبل العدل تقوم النهضات وتستمر الحضارات، وإذا رجعنا إلى دلالة القلعة وألفاظها في اللغة أعطتنا من المعاني ما يسند تلك النظرة، ويقوي تلك الفكرة، (فالفئة: الجماعة، لأن بعضهم قد فاء إلى بعض فصاروا جماعة) (٢٦)، فلفظة الفئة تدل على الجماعية والتماسك، كما تدل على رجوع بعضهم على بعض، (فالفئة: الجماعة من الناس مشتقة من الفيء وهو الرجوع، لأن بعضهم يرجع إلى بعض، ومنه سميّت مؤخره الجيش فئة، لأن الجيش يفيء إليها). (٢٧)، وهم: (الجماعة من الناس قليلاً كان عددهم أو كثيراً). (٢٨)

(٢٤) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: (١ / ٢٩٤).

(٢٥) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (١ / ٧٧٢).

(٢٦) مفاتيح الغيب: (٦ / ٣١٥).

(٢٧) التحرير والتنوير: (٢ / ٩٩٤).

(٢٨) تفسير المراغي: (٢ / ٠٢٢).

والفئة، الجماعة التي يرجع إليها في الشدائد، من قولهم: فاء يفيء إذا رجع، وقد يكون الرجل الواحد فئة تشبيهاً، والملك فئة الناس، والجبل فئة، والحصن، كل ذلك تشبيهه^(٢٩)، وفي قولهم ﷺ كَمُ مِنْ فِئَةٍ الْآيَةِ، تحريض بالمثل وحض واستشعار للصبر، واقتداء بمن صدق ربه، و«إذن الله» هنا تمكينه وعلمه، فمجموع ذلك هو الإذن، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بنصره وتأيدته.

هم السابقون إلى الإيمان والناصرين للحق والدعوات

أكد القرآن الكريم من خلال رصد آيات القلة والكثرة فيه أن السابقين إلى الإيمان والناصرين للدعوات قلة، وهم الذين تقوم عليهم الدعوة، وتبلغ بهم الرسالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ سورة هود: (٤٠) يقول: (وما أفرّج بوحداية الله مع نوح من قومه إلا قليل).^(٣٠)

وعلى الرغم من إسراف كثير من المفسرين في القول في هذا القليل إلا أننا نقف عند ما ورد في القرآن الكريم، ولا نتجاوزه، إيماناً منا أنه لو كان في تفصيله فائدة لما أغفله القرآن، قال أبو جعفر: (والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: (وما آمن معه إلا قليل) ، يصفهم بأنهم كانوا قليلاً، ولم يُحَدِّدْ عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حدُّ الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدٌّ من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ)^(٣١) وهذا القليل السابق إلى الإيمان هو الذي يلتفت إلى مراد الله ﷻ، دون الوقوف عند الظاهر، فيُنقَدُّ كما نفذ نوح والقلّة المؤمنة معه، دون أن يتوقف عند أسباب الأرض، بل يمتد نظره ونظرهم إلى مسبب الأرض والسماوات، من في يده الأسباب وهو ربها، فإن نوحاً ﷺ ومن معه من القلة المؤمنة السابقة إلى إجابة دعوة التوحيد نفذوا مراد ربهم، على الرغم من سخريّة الكثرة الغالبة منهم، ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ سورة: هود: ٣٨، ٣٩.

(٢٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (١/ ٦٣٣).

(٣٠) جامع البيان: (٥١/ ٥٢٣).

(٣١) جامع البيان: (٥١/ ٧٢٣).

فإنه (لما تحقّق بما أمر الله به لم يأبه عند إمضاء ما كلف به بما سمع من القيل، ونظر إلى الموعود بطرف التصديق فكان كالمشاهد له قبل الوجود.)^(٣٢) فحمله ذلك ومن معه على السمع والطاعة على الرغم من فقد الأسباب وكثرة السخرية والاستعجاب.

وأما عن عدد هؤلاء القلة فقد قيل: (كانوا ثمانية: نوح عليه ﷺ، وأهله، وبنوه الثلاثة، ونسأؤهم. وعن ابن إسحق: كانوا عشرة: خمسة رجال، وخمس نسوة، وعنه أيضاً: أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم. وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأةً وأولاد نوح سائماً وحاماً ويافت ونسأؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية في إيمانهم للإيماء إلى المعية في مقر الأمان والنجاة)^(٣٣) فما يكون هؤلاء في أمة أرسل إليها نوح ﷺ؟!!

ومما يدل على أن السابقين إلى إجابة الحق قلة وصف أعداء الحق لهم بسرعة إجابتهم، وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ سورة: هود: (٢٧).

فهؤلاء أسلموا بادي الرأي، أي: أول الأمر، وفور وصول الدعوة إليهم، ودون تفكير بل بظاهر من الرأي،- في زعمهم- وتلك التي عابوها عليهم هي طبيعة النفوس الصافية، والقلوب الراضقة الفائقة، التي لا يحول بينها وبين الحق حائل، ولا يمنعها من الإيمان بداية ظهوره مانع. إن قوم نوح لما رأوا إيمان هؤلاء مسرعين قالوا ما قالوا، وتلك عجيبة الكثرة والغالبين أن يعدوا ما يمدح به عبيا، وهي سنة ماضية في الزمان والمكان والأمم والأفراد:

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت ذنوبا فقل لي كيف أعتذر^(٣٤)

وهؤلاء هم الذين يحرص عليهم ولا يفرط في صحبتهم لقد أرشد الله ﷻ رسوله إلى ملازمتهم؛ لأن بهم تقوم الدعوات وتنشأ الحضارات، وما أعظم قول الله في أمثال هؤلاء لرسوله

صَلَّى اللَّهُ
وَسَيِّدُهُ:

(٣٢) لطائف الإشارات: (٢/ ٦٣١).

(٣٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (٤/ ٨٠٢).

(٣٤) البيت للبحثري، انظر ديوانه: ٤٥٩/١ ت: كامل الصيرفي، ط: دار المعارف، والبيت من قصيدته الرائية التي يمدح فيها علي بن مر الطائي، جمهرة الأمثال: ٥٧٤/١، ونهاية الأرب: ٢٩/٢.

﴿وَأَثَلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٣٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٣٨﴾﴾ الكهف: ٢٧، ٢٨.

فلقد أمر الله رسوله ﷺ هنا بأمرين: تلاوة ما أوحى إليه من كتاب ربه، والصبر مع الذين يدعون ربه بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأمره ﷺ بأن لا يعدو عينيه عنهم، فالوحي واتباع كلماته، والقلّة العاملة المحمودّة، هما جناحا النصر والحضارة، ودعامتا البقاء والاستمرار، وهذا ما جعل نوحا ﷺ يتمتع عن طرد القلّة معه الذين وصفوا بأنهم: (أراذل)، من قبل الكثرة الجاهلة، وفي تعليل نوح لعدم طردهم يحتاج إلى مزيد تأمل، (وَجُمْلَةٌ: (وَمَا أَمَرَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلًا) اغْتِرَاضٌ لِتَكْمِيلِ الْفَائِدَةِ مِنَ الْقِصَّةِ فِي قِلَّةِ الصَّالِحِينَ). (٣٥) (وَلَيْسَ الَّذِينَ رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ أُمَّا لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ) (٣٦)

وهي كذلك السنة في القلّة.

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ﴾ ..

(أي: دون ترو ولا تفكير.. وهذه تهمّة كذلك توجه دائماً من الملام العالين لجموع المؤمنين.. أنها لا تتروى ولا تفكر في اتباع الدعوات. ومن ثم فهي متهمّة في اتباعها واندفاعها، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها، ولا أن يسلكوا طريقها. فإذا كان الأراذل يؤمنون، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا بإيمان الأراذل ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون! «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ».. يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى، أو أعرف بالصواب. فلو كان ما معكم خيراً وصواباً لاهتدينا إليه، ولم تسبقونا أنتم إليه! وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطئ الذي تحدثنا عنه. قياس الفضل بالمال، والفهم بالجاه، والمعرفة بالسلطان.. فذو المال أفضل. وذو الجاه أفهم. وذو السلطان أعرف!! هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائماً حين تعيّب عقيدة التوحيد عن المجتمع، أو تضعف آثارها، فترتد البشرية إلى عسورة هود الجاهلية. وفي التعقيب على قصة نوح وقومه ما يحقق عدداً من الحكم الباهرة، والسنن الحاكمة، التي لا تتخلف ولا تتبدل.

(٣٥) التحرير والتنوير: (٣٧ / ٢١).

(٣٦) التحرير والتنوير: (٢١ / ٠٩).

وهؤلاء القلة هم السابقون إلى الإيمان في كل زمان ومكان، وكما كانوا مع نوح عليه السلام، كانوا مع موسى عليه السلام، ومع محمد - صلى الله عليه وسلم - ومع الأنبياء والمصلحين في كل العصور وعلى تطاول الدهور، وكلام فرعون عن أتباع موسى عليه السلام يظهر هذه السنة جيدا؛ إذ قال عنهم:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَايُطُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ سورة الشعراء: (٥٤-٥٦).

فوصفهم بأنهم شرذمة، وهي: الطائفة والبقية القليلة، فهم كانوا السابقين إلى دعوة موسى ﷺ، والمستجيبين لنداء الإيمان، بين هذه الأعداد الغفيرة التي ذكرها المفسرون في عدد جيش فرعون فضلا عن رعيته، وهكذا السابقون إلى الإيمان قلة، (يَعْنِي هُمْ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ، وَكَانَ أَصْحَابُ مُوسَى سِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ، وَفِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ سِتَّةَ أَلْفِ أَلْفٍ، هَذَا تَفْسِيرُ السُّدِّيِّ). (٣٧)

وقد حرص فرعون على وصفهم بملازمة القلة من خلال هذا اللفظ (لشرذمة)، ومن خلال جمعهم على (قليلون)، فهو يؤكد قتلهم بهذه الصورة لفظا ومعنى، (وقيل: قليلون، لأن كل جماعة منهم كان يلزمها معنى القلة؛ فلما جمع، جمع جماعاتهم قيل: قليلون) (٣٨) وقد ظلمهم فرعون بهذا الوصف، وبغى عليهم وعدا.

ووصف الطاغين لهم بأنهم أراذل أو شرذمة لا يقلل من سبقهم، ولا يكدر من صفوهم فالسابقون السابقون أولئك المقربون، أولئك الذين يؤمنون بلا تردد، ويعتقون بلا صوارف، ويقبلون بلا اشتراط، حسبهم أنهم عرفوا طريقهم ووجدوا ضالتهم، والله ورسوله في ذلك أمّن وأكرم، ولقد عتب الله على قوم زعموا أنهم سبقوا في الإيمان فذكرهم الله ﷻ بأن السبق محض منة من الله وحده، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾، سورة: ق: (١٧، ١٨).

(٣٧) تفسير يحيى بن سلام: (٢/ ٤٠٥).

(٣٨) جامع البيان: (٩١/ ٥٣).

قلة المال وعدم احتفالهم^(٣٩) به

ومن صفات القلة الرائدة، أنهم لا يبهجون بالمال، ولا يحفلون بالجاه والسلطان، إلا بقدر ما يحقق أهدافهم، ويعينهم في الوصول إلى غاياتهم، لا يبهجون بما يأبه به الناس، ولا يشغلون بما يشغل به العامة، ولعل سؤال النبي ﷺ لأصحابه عن رجل رث الثياب، رقيق الحال، قليل المال، وآخر عظيم الثراء، كثير الزينة والمتاع، ليرسخ لديهم هذا القانون الصادق والسنة الحقيقية بالبقاء، فقد (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ حَطَبَ أَنْ يَنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ حَطَبَ أَنْ لَا يَنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»^(٤٠))

فكان النبي ﷺ يريد أن يلفت نظر أصحابه إلى هذه السنة الماضية في القلة وأصحابها، وأنهم لا يبهجون بالدنيا ومتاعها، والحياة وزخرفها، أما الكبراء والأغنياء فلا يرون العز والتقدم إلا في المال والجاه والسلطان، فيقولون لنوح (عليه السلام)، مبيين له عدم إيمانهم: (وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْكَبُوا بِهِنَّ مِنْ الْأَنْثَاءِ فَسَوَىٰ - هُنَّ أُمَّهَاتُ لِمَن فَسَوَىٰ فَهِنَّ آُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ - هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١١٠). كما ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالباً لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء، وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء. ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة لأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها. وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلاً من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك.

فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض. ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائماً، ويصدون عنها الجماهير ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشر التهم للتشويش والتنفير.^(٤١)

(٣٩) ما حَقَلَهُ، و. به، يُحْفَلُهُ، وما اِحْتَفَلَ به: ما بالى: القاموس المحيط (ص: ٥٨٩).

(٤٠) صحيح البخاري: (٨ / ٧).

(٤١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٧٨١).

إن هؤلاء لا يباليون بالمال فلا يشغل باهم، ولا يلهثون وراء السلطان، فلا يهز يقينهم، ولا يركعون للمنصب والوجاهة، فالنفوس الكبيرة لا تكثر في أعينها الأشياء مهما تكاثرت، ولا تشغلها لعاعات الدنيا مهما أبرقت، ف(صانع الحياة يدوس الألقاب برجله ويحطمها، ويمضي يصنع الحياة من موطن التخصص والفن والإبداع. هو مليء النفس ولا يحتاج أحداً ملئها. الذي يُطالب بالمسؤوليات والألقاب الدعوية والنقابة والإمارة على المؤمنين إنما هو العاجز الذي لا يُحسنُ علماً ولا تخصصاً ولا فتناً، فيطلب التعويض بإنعام الألقاب عليه، وبعارك، ويختلف، ويناضل دون مكتسباته السابقة، ويملاً الكواليسَ همساً وسعياً، وأما المقندر فيتقدم تقدم الوائق)(٤٢)

وداود عليه السلام رمز من رموز القلعة التي أثرت الحياة وأنقذت بني إسرائيل من ويلات جالوت، والصفات التي بدا بها تؤكد هذه الصفة لدى تلك القلعة المؤثرة في تاريخ الحياة، بدا ذلك في ثيابه التي لقي بها جالوت، وفي سلاحه الذي قتله به، وفي عدم احتفاله بوجاهته ومنصبه، وجنده وحاشيته، حتى أغاظ ذلك جالوت وكسر نفسه كسرا وهزمه هزيمة وقتله أولاً روحاً ونفساً قبل أن يقتله بنياناً وجسداً، (كَانَ عَلَماً يَرَعَى الْعَنَمَ، وَمَ يَقْبَلُ أَنْ يَلْبَسَ دِرْعًا وَلَا أَنْ يَحْمِلَ سِلَاحًا، بَلْ حَمَلَ مِقْلَاعَهُ وَحِجَارَتَهُ، فَسَخِرَ مِنْهُ جَالُوتُ، وَاحْتَمَى عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَسْتَعِدَّ لَهُ، وَقَالَ: هَلْ أَنَا كَلْبٌ فَتَخْرُجُ إِلَيَّ بِالْمِقْلَاعِ؟ فَرَمَاهُ دَاوُدُ بِمِقْلَاعِهِ فَأَصَابَ الْحِجْرَ رَأْسَهُ فَصَرَعَهُ فَدَنَا مِنْهُ فَاحْتَرَّ رَأْسُهُ، وَجَاءَ بِهِ فَأَلْقَاهُ إِلَى طَالُوتَ فَعَرَفَ دَاوُدُ، وَكَانَ لَهُ الشَّأْنُ الَّذِي وَرِثَ بِهِ مُلْكَ إِسْرَائِيلَ، كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (٤٣).

(شاء الله أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا الله بعهدهم، ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريده.

وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجباية الذين يرهبونهم ضعاف، ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم.. وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله. فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم

(٤٢) صناعة الحياة ، لمحمد أحمد الراشد: ٤٦ .

(٤٣) تفسير المنار: (٢ / ٩٨٣).

الطويل جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرد(٤٤)

إن قيمة المرء في نفسه، ومكانته هو الذي يصنعها، بعيدا عن زخرف الدنيا، وشارات الحياة، وواقع الناس ينبئ بذلك إنباءً، فأحرص الناس على وجاهتهم وتقدمهم هم أكثر الناس فراغا، فالممتلي من داخله ليس في حاجة إلى من ينعم عليه بشارة أو عبارة، ولعل هذا من حِكم الله في: ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾؛ رمزاً للتقلل مما يثقل البدن، ويُعتم النفس، فالذي يتخفف من حاجاته الأساسية يكون على ترك غيرها أقدر، والميدان ميدان قتال ودماء، وبذل وأشلاء، والذي لا يصبر على ترك الماء لا يصبر على ملاقات الأعداء، ومقارعة الأبطال، أما الذي يكرع حتى يمتلي، ويعب حتى يتورم فلا يقوى على مقاومة نفسه، ومن لا يقوى على مقاومة نفسه لا يقوى على مقارعة غيره.

وهم علماء فقهاء

العلم أساس الحضارة، به تنشأ وعليه تقوم، وبدونه لا تستمر ولا تزدهر، وحضارة لا تتبنى العلم ولا تعتمد عليه حضارة شوهاء، ترف - إن رفت - بجناح واحد، أو هي عرجاء تمشي - إن مشت - على ساق واحدة، من هنا كان أول ما نزل في بناء حضارة الإسلام (اقرأ)، ومن هنا كان العلم قبل العقيدة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، سورة: محمد: (١٩)

والقلّة الرائدة العاملة لا تكون مؤثرة إلا بالعلم؛ لذا ترى من أبرز صفات القلة أنهم عالمون فاقهون، وهذا شأن القلة، تكون أكثر أهل أمتها علما، وأوفرها فهما لأنهم الرادة الذين يسبقون، والقادة الذين يدلون قومهم إلى مواطن الهدى والفلاح.

وهؤلاء العلماء هم الأصفياء الخُلص، والخواص من عباد الله ﷻ؛ ولذا أطلعهم بعلمه على معرفة عدد هؤلاء الأولياء من عباده، أهل الكهف الدعاة الصابرين الفارين بدينهم من الظلم وأهله، (لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواص عباده، ومن كان قريبا في الحال منهم فهم في كتم الغيرة، وإيواء الستر، لا يطلع الأجانب عليهم، ولا يعلمهم إلا قليل؛ لأن الحق ﷻ يستر أوليائه عن الأجانب، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة فالأجانب لا يعرفون الأقارب، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب)(٤٥)، (ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل)(٤٦)

(٤٤) في ظلال القرآن: (١/ ٩٦٢).

(٤٥) لطائف الإشارات: (٢/ ٩٨٣).

(٤٦) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٣/ ٨٠٥).

وهؤلاء العالمون هم الذين وفقوا لعلم الصواب وإصابة الحق، (وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم.)^(٤٧)

إن هؤلاء القلة هم أهل العلم بزمانهم، وأهل الوعي بشأنهم، وما يلزمهم في وقتهم، وذلك العلم أحد الأسباب الرئيسة التي تبنى عليها الحضارة، وتؤسس عليها الدعوة إلى الله ﷻ، وتحفظ هذه الحضارة من التفسخ والانحلال.

والناظر في القلة مع داوود يرى أنهم علماء واعبون وفقهاء فاهمون، بدا ذلك في ترتيب الدعاء لديهم كما بدا في نصحهم لمن معهم، وحرصهم على هدايتهم، ومما يدل على ذلك أيضا قولهم: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿تَقْوِيَةُ قُلُوبِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وَالْمَعْنَى: لَا عِبْرَةَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالتَّائِيْدِ الْإِلَهِيِّ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وهذا من تمام قولهم.^(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ﴿أَيِ اسْتَقْلُوا أَنفُسَهُمْ عَن لِّقَاءِ عَدُوِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ، فَشَجَعَهُمْ عُلَمَاؤُهُمُ الْعَالِمُونَ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَإِنَّ النَّصْرَ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ عَن كَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَا عِدَدٍ﴾^(٤٩)

مؤمنون بالله

ومن صفات القلة أنهم مؤمنون بالله إيمانا يقينيا عمليا فهم يدركون أن الإيمان أساس النصر والتأييد، (إِنَّ الْإِيمَانَ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ، وَالِاعْتِصَامَ بِالصَّبْرِ - الَّذِي هُوَ مِنْ أَرْكَانِ الْبِرِّ وَكَمَالِهِ مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ - سَبَبَانِ مِنْ أَسْبَابِ نَصْرِ الْعَدَدِ الْقَلِيلِ عَلَى الْعَدَدِ الْكَثِيرِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿سورة البقرة: (٢٤٩)﴾^(٥٠)

وهذا الإيمان هو الذي يحملهم على التمسك بمبدئهم، والتضحية في سبيله، والصبر على مشاقه، لعلمهم إن الله ناصر دينه، ومؤيد أهله

(٤٧) تيسير الكريم سورة الرحمن: (٤٧٤).

(٤٨) اللباب في علوم الكتاب: (٤ / ٨٨٢).

(٤٩) تفسير ابن كثير، ط: العلمية: (١ / ٩٠٥).

(٥٠) تفسير المنار: (١ / ٠٠١).

وهم أصحاب العزم

من صفات القلّة أنهم أولو عزم ومثابرة، والمتأمل لقصة الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى يدرك مدى عزم هؤلاء الذين رأوا عدوهم أضعاف عددهم أضعافاً مضاعفة، فما وهنوا وما استكانوا بل صبروا في رضا، ومضوا في عزم واثقين من نصر الله وتأنيده، ومدده وتمكينه، وأفرغوا هذه المعاني على من معهم داعين غيرهم إلى الصبر واليقين في موعود الله تعالى بالنصر والظفر، وعندما قال أكثر العابرين للنهر لما رأوا طالوت وجنوده: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ سورة: البقرة: (٢٤٩) (كَيْفَ نُطِيقُ الْعُدُوَّ مَعَ كَثْرَتِهِمْ! قَالَ أُولُو الْعَزْمِ مِنْهُمْ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: كُنَّا تَتَحَدَّثُ أَنَّ عِدَّةَ أَهْلِ بَدْرٍ كَعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا - وَفِي رِوَايَةٍ: وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا - وَمَا جَازَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ. (٥١)

وهؤلاء المؤمنون الصابرون الثابتون المصابرون هم القلّة العاملة وهم خلاصة غيرهم، الذين يثبتون عندما ينكسر غيرهم وهم لعظيم إيمانهم أكثر ثقة من غيرهم فهؤلاء هم (الخلص منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى). (٥٢)

موصولون بالله متعلقون بدعائه

ومن صفات القلّة التي نفيدها من موقفهم مع طالوت عليه السلام أنهم على صلة قوية بالله سبحانه، بدا ذلك في يقينهم في أنهم ملاقوه، وبدا كذلك في صيغة تعبير القرآن عنهم بأنهم (الذين يطنون أنهم ملاقوا الله)، والظن هنا إن كان بمعنى اليقين فهو يدل على ثقتهم وبقينهم في لقاء ربهم، وإن كان على بابه فهو من هضم أنفسهم حيث إنهم في موطن الشهادة والقدوم على الموت، كما يبدو إيمانهم وحسن صلتهم بالله من تعبيرهم في الدعاء: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (وَأَفْرِغْ بمعنى: اصعب، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا أي: قوّ قلوبنا لتثبيت أقدامنا، وإنما تثبت الأقدام عند قوة القلوب) (٥٣)

(٥١) تفسير القرطبي: (٣/ ٥٥٢).

(٥٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (١/ ١٥١).

(٥٣) زاد المسير في علم التفسير: (١/ ٧٢٢).

وفي اختيارهم الدعاء بلفظ الربوبية فيه ما فيه من وعيهم وحسن صلتهم برهم، و(هذه هي الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه فهو ينادي قائلاً: (رَبَّنَا) إنه لم يقل: يا الله، بل يقول: (رَبَّنَا)؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعتاء، بينما مطلوب «الله» هو العبودية والتكليف؛ لذلك ينادي المؤمن ربه في الموقف الصعب «يا ربنا» أي يا من خلقتنا وتولانا وتمدنا بالأسباب... وعندما نتأمل كلمة ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ حتى يواجهوا العدو بإيمان، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين، وتأتي النتيجة للزم الإيماني والقتال في قوله الحق: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾^(٥٤)

وفي ترتيب الدعاء: حسن صلة، وجودة وعي، من طلب إفراغ الصبر، ثم تثبيت الأقدام، وهو مرتب على سابقه، ثم النصر على الكافرين، وهو نتيجة المقدمتين السابقتين، واستخدام لفظ: (الكافرين) فيه تحضيض عليهم، واستجلاب للنصر على هؤلاء الكافرين، فلم يقولوا انصرنا على عدونا، بل على القوم الكافرين، تحضيضاً عليهم وبيانا لسبب طلب نصرهم على هؤلاء الذين جحدوا الله في ربوبيته وألوهيته، ففي هذا الدعاء مع حسن الصلة ودقة الوعي (ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ: فكسروهم بنصره، أو مصاحبين لنصره إياهم إجابة لدعائهم. (٥٥)

ومن لطائف صاحب البحر جمعه لبعض اللمسات التي يتميز بها في قوله: (فَزِعُوا إِلَى الدُّعَاءِ لِلَّهِ ﷻ فَنادَوْا بِلَفْظِ الرَّبِّ الدَّالِّ عَلَى الإِصْلَاحِ وَعَلَى المُلْكِ، ففِي ذَلِكَ إِشْعَارٌ بِالعُبودِيَّةِ. وَقَوْلُهُمْ: أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا سُؤَالَ بِأَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِمُ الصَّبْرُ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَعْلِيًا عَلَيْهِمْ، وَيَكُونَ لَهُمْ كَالظَّرْفِ وَهُمْ كَالْمَظْرُوفِينَ فِيهِ. وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا فَلَا تَرُّ لُ عَنْ مَدَاحِضِ القِتَالِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ تَشْجِيعِ قُلُوبِهِمْ وَتَقْوِيَّتِهَا، وَلَمَّا سَأَلُوا مَا يَكُونُ مُسْتَعْلِيًا عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّبْرِ سَأَلُوا تَثْبِيتَ أَقْدَامِهِمْ وَإِزْسَاحَهَا. وَأَنْصَرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ أَي: أعنا عليهم، وجاؤا بِالوَصْفِ المُفْتَضِي لِخُذْلَانِ أَعْدَائِهِمْ، وَهُوَ الكُفْرُ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الأصْنَامَ، وَفِي قَوْلِهِمْ: رَبَّنَا، إِقْرَارٌ لِلَّهِ ﷻ بِالوَحْدَانِيَّةِ، وَإِقْرَارٌ لَهُ بِالْعُبودِيَّةِ). (٥٦)

(٥٤) تفسير الشعراوي: (٢/ ٦٥٠١).

(٥٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (١/ ٢٥١).

(٥٦) البحر المحيط في التفسير: (٢/ ٢٩٥)، الباب في علوم الكتاب: (٤/ ٩٨٢)، وتفسير المنار: (٢/ ٩٨٣).

واعون بسنن الله الجارية والخارقة في الحياة والأحياء

من أهم صفات القلّة المحمودة والتي تظهر السننية في هذا الجانب أنهم على وعي ملحوظ بسنن الله ﷻ في الحياة والأحياء، يظهر ذلك في الجيل القرآني الفريد الذي رباه الرسول ﷺ، كما يظهر في كل قلة تمنح النصر، والمتأمل للقلّة مع طالوت يلحظ ذلك في غير موضع، في وعيهم بالدعاء، ومدى جلته للنصر بعد الأخذ بالأسباب، وفي ترتيب الدعاء، كما مر، وفي اختيار الألفاظ ودقتها، وفي قولهم: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)، فإدراكهم لما مضى على الخلق من نصر القلّة العاملة على الكثرة النائمة، وذلك من خلال التعبير بـ(كم) التي تفيد التكثر، وقولهم (والله مع الصابرين)، وهذه سنة من سنن الله تعالى.

يقول أبو حيان في البحر: (إنا لا نكثرث بجالوت وجنوده وإن كثروا، فإنّ الكثرة ليست سبباً للإنتصار، فكثيراً ما انتصر القليل على الكثير ولما كان قد سبق ذلك في الأزمان الماضية. وعلموا بذلك، أحزبوا بصيعة: كم، الْمُقْتَضِيَةُ للتكثير)^(٥٧)، وذلك هو عين إدراك السنن الربانية، والإفادة منها.

كما أن المتأمل لدعائهم يلحظ فيه بوضوح هذا الوعي الراقي، فهم سألوا الله ﷻ بلفظ الربوبية، وهي مدار العطاء والرعاية والتربية والعناية، ولم يسألوه بالألوهية التي هي مدار التكليف، كما أنهم قالوا: (أفرغ) الذي يدل على الشمول والعموم والاستيعاب، كما أنهم ربطوه بلفظ: (على) الذي يدل على العلو وفيه من التمكن ما فيه، وتلك طبيعة القلّة الواعية للسنن في كل زمان ومكان، والناظر في أدعية النبي ﷺ والقلّة المؤمنة معه يلمح هذا بوضوح، ويلمح مدى الترابط البديع بين صفات القلّة على ترابط الزمن وتباعد الأمصار، ففي نداءهم بقولهم: «رَبَّنَا» (اعتراف منهم بالعبودية، وطلب لإصلاحهم؛ لأنّ لفظ «الرَّبِّ» يُشعر بذلك دون غيرها، وأتوا بلفظ «على» في قولهم «أفرغ علينا» طلباً؛ لأنّ يكون الصبر مُستعلياً عليهم، وشاملاً لهم كالظرف. ونظيره ما حكى الله عن قوم آخرين أنّهم قالوا حين لاقوا عدوهم: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٧]، وكذلك كان ﷺ يفعل في المواطن.^(٥٨)

كما تلمح وعيهم بالسنن كذلك في طلبهم للصبر، وثبات الأقدام، وتوقع النصر بهذا التدرج، وتلك هي مطالب الفئة المؤمنة للنصر على العدو وخلاصتها في ثلاثة أمور:

(٥٧) الباب في علوم الكتاب: (٤/ ٩٨٢).

الأول: الصبر على مشاهدة المخاوف وهو المراد بقولهم: (وَتَبَّتْ أقدَامَنَا).
الثاني: أن يكون قد وجد من الآلات والأدوات ما يمكنه أن يقف ويثبت، ولا يصير ملجأ إلى الفرار.
الثالث: زيادة القوة على العدو؛ حتى يقهره، وهو المراد من قولهم (وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (٥٩)

وهذا هو ترتيب العقل والواقع، بما يشعر بأنهم واعون وابعون لسنن الله ﷻ في الحياة، وهذه الأمور الثلاثة بعضها مرتب على بعض بحسب الأسباب الغالبة، فالصبر سبب للتبات الذي هو سبب من أسباب النصر، وأجدد الناس بالصبر المؤمنون بالله عز وجل الغالب على أمره. (٦٠)

القراءات في الآية الكريمة وعلاقتها بالسنية في القلة

ومن القراءات الواردة في الآيات الكريمة التي تعقب على قصة الملأ من بني إسرائيل ما يفيد في تأكيد السنية فيما حوته الآيات الكريمة، فقد ورد فيها: (ولولا دفاع الله الناس)، وهي قراءة: نافع، وأبي جعفر، ويعقوب، وورد فيها: (لولا دفع الله الناس) وهي قراءة الباقي (٦١)

(وَقَدْ سَمِيَ هَذَا دَفْعًا عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمُهورِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، إِذْ كَانَ سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ فِي الاجْتِمَاعِ البَشَرِيِّ، وَسَمَّاهُ دَفْعًا فِي قِرَاءَةِ نَافِعٍ بِاعْتِبَارِ أَنَّ كَلًّا مِنْ أَهْلِ الحَقِّ الْمُصْلِحِينَ وَأَهْلِ البَاطِلِ الْمُفْسِدِينَ يُقاوِمُ الأَخَرَ وَيَقَاتِلُهُ.) (٦٢)

ولعل تذييل الآية الكريمة بهذا التذييل ليكون نهاية وتعقيبا على كل ما مضى من الآيات المتعلقة بهذه القصة وما قبلها، كما يرى صاحب التحرير والتنوير: أن هذه الآية ذيلت (كُلُّ الوَقَائِعِ العَجِيبَةِ الَّتِي أَشارَتْ بِهَا الأَيَاتُ السَّالِفَةُ لِتَدْفَعَ عَنِ السَّامِعِ المُتَبَصِّرِ مَا يُجَامِرُهُ مِنْ تَطَلُّبِ الحِكْمَةِ فِي حَدَثَانِ هَذِهِ الوَقَائِعِ وَأَمْثالِهَا فِي هَذَا العَالَمِ وَلِكَوْنِ مَضْمُونِ هَذِهِ الأَيَةِ عِبْرَةً مَنْ عَبَرَ الأَكْوَانِ وَحِكْمَةً مِنْ حِكْمِ التَّارِيخِ، وَنُظِمَ العُمُرَانِ الَّتِي لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا أَحَدٌ قَبْلَ تَرْوُلِ هَذِهِ الأَيَةِ، وَقَبْلَ إِذْرَاكِ مَا فِي مَطَاوِيهَا، عَطِفتْ عَلَى العِبَرِ المَاضِيَةِ كَمَا عَطِفتْ

(٥٩) اللباب في علوم الكتاب: (٤ / ٩٨٢).

(٦٠) تفسير المنار: (٢ / ٩٨٣).

(٦١) القراءات العشر المتواترة، ص ١٤، محمد راجح كريم، ط: دار المهاجر، المدينة المنورة، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ، ٩٩١م.

(٦٢) تفسير المنار: (٢ / ٩٩٣).

قَوْلُهُ: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧] وَمَا بَعْدَهُ مِنْ رُؤُوسِ الْأَيِّ. وَعَدَلَ عَنِ الْمُتَعَارَفِ فِي أُمَّتِهَا مِنْ تَرَكَ الْعَطْفِ، وَسُلُوكِ سَبِيلِ الْإِسْتِنَافِ. (٦٣)

وما يؤكد السننية في القلة ومهمتها في الحياة ونظرتها للمقاييس والمعايير، واستمدادهم للقوة الحقيقية اختفاء الأشخاص من العرض القرآني بهدوء وظهور الحكمة الماضية الثابتة التي هي سنة الله التي لا تتخلف ولا تتأجل، سنته في القلة المؤمنة الصابرة، والكثرة المغرورة المتكبرة، التي تتكرر في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر.

وما جرى على داود عليه السلام هو ما يجري على القلة في كل زمان ومكان فهي سنة ماضية، وناموس لا يتبدل ولا يتخلف، ولقد رصد لنا القرآن الكريم نموذجاً آخر من نماذج القلة بدت في عينه الدنيا قليلة، بالنسبة إلى صادق موعود الله ﷺ وعظيم إنعامه على المؤمنين، إنه صاحب ذي الجنتين، الذي وقف أمام صاحبه معلماً ومرشداً، ومبيناً وهادياً، ذاكراً له أن القلة في الدنيا لا تعني القلة في الآخرة وأن الغنى في الأولى ليس دليلاً على وفرة المال في الثانية، ومقاييس العاجلة ليست مقاييس الباقية، وبعد حوار طويل رصده القرآن الكريم، أكد له المؤمن أنه وإن كان في المال خلواً، وفي الأولاد قلاً فالله خير وأبقى..

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ سورة الكهف: ٣٧-٣٩.

وهذا القول من المؤمن بيان واع للقلة في الدنيا وصفاتها، وهو مثل يتكرر في كل زمان ومكان، (هُوَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ، وَلَا عَشِيرَةَ، مِثْلُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ وَعَشِيرَتِهِ، وَهُوَ مِثْلُ سَلْمَانَ وَصَهَيْبٍ وَحَبَّابٍ، يَقُولُ: قَالَ الْمُؤْمِنُ لِلْكَافِرِ: إِنَّ تَرَنَّا أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا) (٦٤) هكذا في نظرك، وأنت الكثير المال الوافر العشيرة والعيال، فإني بفضل الله عزيز، وبعطائه غني، وبرضاه مطمئن، وبتأييده آمن، فأنا عبده وهو سيدي، (وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب. وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله. وأن نعمة الله جبارة

(٦٣) التحرير والتنوير: (٢ / ١٠٥).

(٦٤) جامع البيان: (٥١ / ٥٦٢).

وأما وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطين.)^(٦٥) إنه مثل يتكرر في الزمان والمكان والأفراد وتلك سمة السنة الماضية، والقانون الذي لا يتبدل ولا يتحول.

الصبر والثبات وطاعة القواد

ومن صفات القلة المحمودة التي جرت بها سنة القرآن الكريم، الصبر والثبات، بدا ذلك في القلة المؤمنة مع طالوت، وبدا عمليا في غزوات النبي ﷺ ويبدو ذلك صراحة في طلب القرآن الكريم منهم الصبر والثبات على ملاقاتة الكفار في الحرب وبيان أنهم لا يفقهون:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦٥)
الآن حَقَّقَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿ سورة الأنفال: (٦٦).

(إِنَّ الْفِتَّةَ الْقَلِيلَةَ قَدْ تَغْلِبُ - بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَطَاعَةِ الْقَوَادِ - الْفِتَّةَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي أَعْوَزَهَا الصَّبْرُ وَالِاتِّحَادُ، مَعَ طَاعَةِ الْقَوَادِ؛ لِأَنَّ نَصَرَ اللَّهِ مَعَ الصَّابِرِينَ: أَيُّ جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يَكُونَ النَّصْرُ أَثْرًا لِلثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْجُرْعِ وَالْجُبْنِ هُمْ أَعْوَانُ لِعَدُوِّهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَهُوَ كَثِيرٌ لَا مُطَرِّدٌ) (٦٦)

شاكرون عملاً

وإذا كانت القلة العاملة هم العاملون الواعيون لما دق على غيرهم، فهم كذلك الشاكرون عملاً لا قولاً، والمستشعرون لنعمة الله تعالى عليهم يدفعهم علمهم إلى الشكر الصادق، وهو الشكر العملي، الذي لا يتوقف عند شقشقة اللسان وطمطمة الأسنان، بل يعلمون أن العلم يولد العمل، والشكر من جنس النعمة التي رزقوها، كما أخبر الله تعالى عن آل داود في قوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ سورة سبأ: (١٣). أي: (وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه مع الشكر له على سائر نعمه التي عمكم بها مع سائر خلقه، وترك ذكر: ”وقلنا لهم“ اكتفاء بدلالة الكلام على ما ترك منه)^(٦٧).

(٦٥) في ظلال القرآن: (٤/ ١٧٢٢).

(٦٦) تفسير المنار: (٢/ ٣٩٣).

(٦٧) جامع البيان: (٠٢/ ١٦٣).

ولعل السر في التعبير عن الشكر بالعمل فلم يقل الله ﷻ: اشكروا، بل قال: اعملوا شكراً، ما يظهر أنهم مطالبون بأن يكون شكرهم شكراً عملياً، لا شكراً قولياً، (وأخرج قوله: (شُكْرًا) مصدراً من قوله: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ) لأن معنى قوله: (اعْمَلُوا): اشكروا ربكم بطاعتكم إياه، وأن العمل بالذي رضي الله، لله شكر.)^(٦٨) وهؤلاء الشاكرون شكراً عملياً قليلون، وتلك سنة الله تعالى في خلقه وعباده، أي: (وقليل من عبادي المخلصو توحيدني والمفردو طاعتي وشكري على نعمتي عليهم.)^(٦٩) أي: (أقلُّ النَّاسِ الْمُؤْمِنِ)^(٧٠)، فالمخلصون في توحيدهم والمفردون للطاعة والشكر على النعمة هم الشاكرون عملاً، وهم أقل الناس كما جرت بذلك سنة الله تعالى في القلة.

والشكور: (المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يوفي حقه؛ لأن توفيقه الشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهايته؛ ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر.)^(٧١) **والشكور:** (العامل بطاعتي شكراً لنعمتي)^(٧٢)

وواقع الناس ينبي بأن القليل منهم من يشكر على هذا النحو، فيشكر على المنع كما يشكر على الأخذ، ويشكر على البلاء كما يشكر على الرخاء، ويشكر على القليل كما يشكر على الكثير، ويشكر بقلبه وكل جوارحه، وهذا الصنف في الناس لا أقول قليل بل نادر، فالكثير من الناس من يهش للطاء ويأسى في البلاء، قليل من الناس (من يأخذ النعمة من الله ولا يحملها على الأسباب فلا يشكر الوسائط ويشكر الله. والأكثر من يأخذون النعمة من الله، ويجدون الخير من قبله ثم يتقلدون المنّة من غير الله، ويشكرون غير الله.)^(٧٣) يقول ابن كثير رحمه الله: وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ إِبْرَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ.^(٧٤) وهذا هو عين السننية في صفة تلك القلة. (وَإِذْ كَانَ الْعَمَلُ شُكْرًا أَفَادَ أَنَّ الْعَامِلِينَ قَلِيلًا.)^(٧٥) (هذا إخبار بواقع. وصدق الله العظيم، الشاكرون لله على نعمه قليل، وفي كل زمان ومكان؛ وذلك لاستيلاء الغفلة على القلوب من جهة، ولجهل الناس برهم وإنعامه من جهة أخرى.)^(٧٦)

(٦٨) جامع البيان: (٠٢ / ٨٦٣).

(٦٩) جامع البيان: (٠٢ / ٩٦٣).

(٧٠) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٤ / ٠١).

(٧١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٤ / ٤٤٢).

(٧٢) التفسير الوسيط للواحد: (٣ / ٩٨٤)، تفسير البغوي: (٣ / ٤٧٦). وتفسير السمعاني: (٤ / ٢٢٣).

(٧٣) لطائف الإشارات: (٣ / ٩٧١)، بتصرف يسير.

(٧٤) تفسير ابن كثير: (٦ / ١٠٥).

(٧٥) التحرير والتنوير: (٢٢ / ٣٦١).

(٧٦) أيسر التفاسير للجزائري: (٤ / ٠١٣).

وهذه سنة الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتخلف والتي يعبر عنها المفسرون بعبادة الله ﷻ، (وقد جرت عاداته ﷻ بكثرة الحبيث من كل شيء، وقلة الطيب من كل شيء، قال ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ ، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ، وفي الحديث الصحيح: «النَّاسُ كِبَابِلٌ مِائَةٌ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»، وقال الشاعر:

إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا

فأهل الصفا قليل في كل زمان) (٧٧)

لا يبيغون على خطائهم

والقليل الشاكر الذي يشكر على السراء والضراء، وعلى النعمة وعلى البلاء، وعلى الأخذ والإيتاء، يحمله هذا الوعي إلى سعي يرضي ربه فلا يبيغ في شركته، ولا يحيف في قسمته، ولا يمد عينيه إلى ما فضل به بعض الناس؛ عالماً أن الرزاق واهب، وأن المعطي حكيم، وأن عطاء الدنيا بلاء واختبار، ولقد أكد القرآن الكريم أن القلة المحمودة لا تبغي ولا تتحيف، ولا تشتط ولا تميد، قال تعالى في وصف هذه القلة بأنها لا يبيغ بعضها على بعض:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ص: (٢٤).

أي أن هؤلاء الذين لا يظلمون قليلون بالنسبة إلى غيرهم من الخطاء الظالمين الذين يبيغون على شركائهم. أي: (قليل من لا يبيغ) (٧٨) أو: (قليل الذين هم فيه) (٧٩)، (وهم قلة نادرة) (٨٠)

وهؤلاء القليل الذين لا يظلمون، هم الصالحون القليلون في كل زمان ومكان، وقد أراد داود ﷻ بوصف القلة هنا ذكر حال هؤلاء القليل الذين هم لا يظلمون ولا يبيغون، على سبيل (الموعظة الحسنة والترغيب في إثارة عادة الخطاء الصالحاء الذين حكم لهم بالقلة، وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم، مع التأسف على حالهم، وأن يسلي المظلوم عما جرى عليه من خليطه، وأن له في أكثر الخطاء أسوة). (٨١).

(٧٧) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٢ / ٠٨).

(٧٨) جامع البيان: (١٢ / ٠٨١)، الموسوعة القرآنية: (١١ / ٨٦).

(٧٩) تفسير ابن أبي حاتم: (٠١ / ٤٢٣).

(٨٠) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ٦٧٦/١.

(٨١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٤ / ٧٨).

وبين الإمام الرازي السننية في قلة الصالحين الذين لا يبغى بعضهم على بعض وأسباب ذلك بأن (الْحُكْمَ بِقَلَّةِ أَهْلِ الْخَيْرِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سورة سبأ: ١٣]، وَقَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾، وَحَكَى تَعَالَى عَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧]، وَسَبَبُ الْقَلَّةِ أَنَّ الدَّوَاعِيَ إِلَى الدُّنْيَا كَثِيرَةٌ، وَهِيَ الْحَوَاسِ الْبَاطِنَةُ وَالظَّاهِرَةُ ... فَلِهَذَا السَّبَبِ وَقَعَتِ الْقَلَّةُ فِي جَانِبِ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْكَثْرَةُ فِي جَانِبِ أَهْلِ الشَّرِّ، (٨٢).

(وَقَلِيلٌ مَا هُمْ أَي وَهْمٌ قَلِيلٌ، وَمَا مَزِيدَةٌ لِلإِبْهَامِ وَالتَّعْجَبِ مِنْ قَلْتِهِمْ). (٨٣) (والمعنى أن الصالحين الذين لا يظلمون قليل) (٨٤)

وتذليل الجملة الكريمة بهذا الوصف يبين نفاسة القلة، وسنة الله ﷻ فيها، التي تؤكد بها وقائع الأحداث ودنيا الناس، وهناك دواعي لهذه القلة وعوامل ساعدت عليها، (وَفِي تَدْيِيلِ كَلَامِهِ بِقَوْلِهِ: (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) حَثُّ هُمَا أَنْ يَكُونَا مِنَ الصَّالِحِينَ لِمَا هُوَ مُتَقَرَّرٌ فِي النُّفُوسِ مِنْ تَفَاسَةٍ كُلِّ شَيْءٍ قَلِيلٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٠] وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مِنْ جَانِبِ الْحِكْمَةِ: أَنَّ الدَّوَاعِيَ إِلَى لَدَاتِ الدُّنْيَا كَثِيرَةٌ وَالْمَشْيُ مَعَ الْهَوَى مَحْبُوبٌ وَمُجَاهَدَةُ النَّفْسِ عَزِيزَةٌ الْوُقُوعِ، فَالْإِنْسَانُ مَحْفُوفٌ بِجَوَادِبِ السَّيِّئَاتِ، وَأَمَّا دَوَاعِيَ الْحَقِّ وَالْكَمَالِ فَهِيَ الدِّينُ وَالْحِكْمَةُ، وَفِي أَسْبَابِ الْكَمَالِ إِعْرَاضٌ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَهُوَ إِعْرَاضٌ عَسِيرٌ لَا يَسْلُكُهُ إِلَّا مَنْ سَمَا بِدِينِهِ وَهَمَّتِهِ إِلَى الشَّرْفِ النَّفْسَانِيَّ وَأَعْرَضَ عَنِ الدَّاعِي الشَّهَوَاتِيَّ، فَذَلِكَ هُوَ الْعِلَّةُ فِي هَذَا الْحُكْمِ بِالْقَلَّةِ (٨٥)

لا يحتنكهم الشيطان

القلة الرائدة لا يتحکم فيها الشيطان؛ فهي تعرف طريقها وتمسك بمنهاجها، وتقتفي قدوتها، فلا يغريها الشيطان، ولا تلتبس عليها الطرق، ولا تتشعب بها الوديان، منهاجها واضح، وقدوتها رائدة، وطريقها مدروسة خطواته معلومة ملامحه، ولقد استثنى العدو الأكبر إبليس هؤلاء من سيطرته وهيمنته، وإن كانوا داخلين شأن سنة الله في الابتلاء والاختبار،

(٨٢) مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير: (٦٢ / ٥٨٣).

(٨٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٥ / ٧٢).

(٨٤) لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤ / ٦٣).

(٨٥) التحرير والتنوير: (٣٢ / ٦٣٢).

استثناهم من تحكّمه فيهم، واستبلائه عليهم، وأقسم على ذلك وشرط: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿وَأَحْتَنِكَنَّ﴾ (يعني: «لَأُحْتَوِينَ»)^(٨٦)، أو: (لأحتوين على ذريته إلا قليلاً).^(٨٧) و(عن عليّ، عن ابن عباس: (لأستولين).^(٨٨)، وعن الحسن: (لأهلكنهم بالإضلال {الإ قليلاً} يعني: المؤمنين).^(٨٩) أو لأستأصلنهم، وأستقصي ما عندهم فلا يند منهم أحد، تقول العرب: (قد احتنكت السنّة أمواهم؛ إذا استأصلتها، واحتنك فلان ما عند فلان من العلم؛ إذا استقصاه)^(٩٠) وهذا قسم من الشيطان أنه لن ينجو من حبائله وشراكه إلا هؤلاء، (فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم).^(٩١) وواقع الحياة يؤكد تلك السنة الماضية، والصفة الحاكمة للقلّة المحمودة العاملة.

مؤيدون منصورون

القلّة المحمودة مؤيدة بنصر الله ﷻ وتأييده، وهذا موطن قوتهم، وسر نهضتهم، مهما رآهم الناس قلّة، فهم في الواقع لهم مدد إلهي، والإمداد على قدر الاستعداد، والجود على قدر الجهد، وإذا أيد الله عبدا فما تكون الدنيا وما عليها، وإذا خلاه نصر الله فلا يغني عنه كثير ولا قليل، وهذا ما تعيه القلّة المؤمنة مع طالوت ﷺ إذ قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة البقرة: (٢٤٩). هكذا بإذن الله، أي: بنصره وتأييده، وقد فعل، ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، سورة البقرة: ٢٥٠، ٢٤٩.

(والمعنى أنه لا عبرة بكثرة العدد إنما العبرة بالتأييد الإلهي، والنصر السماوي، فإذا جاءت الدولة فلا مضرّة في القلّة والدلّة، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعدّة).^(٩٢)، (أمّا قوله: واللّه مع الصّابرين فلا شبهة أنّ المراد المعونة والنصرة)^(٩٣)، (والعزيز:

(٨٦) تفسير مجاهد: (٨٣٤).

(٨٧) تفسير مقاتل بن سليمان: (١٢٢ / ٥).

(٨٨) جامع البيان: (٩٨٤ / ٧١).

(٨٩) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٩٢ / ٣).

(٩٠) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٩٢ / ٣)، الموسوعة القرآنية: (١٥١ / ٨).

(٩١) في ظلال القرآن: (٨٣٢٢ / ٤).

(٩٢) مفاتيح الغيب: (٣١٥ / ٦)، اللباب في علوم الكتاب: (٨٨٢ / ٤).

(٩٣) مفاتيح الغيب: (٤١٥ / ٦).

من أعزه الله، والدليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلّة مع نصره، {والله مع الصابرين} بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله،^(٩٤)

وإذا كانت القلّة المؤمنة مع طالوت قد وعت هذه السنة الربانية، فإن الله ﷻ قد منّ بها على القلّة المؤمنة مع رسول الله ﷺ، إذ ذكّرهم بذلك فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَتَكُمْ النَّاسُ فَلَآؤَاكُمُ وَيَدَّكُمُ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة الأنفال: (٢٦).

فهذه منة يمن الله تعالى بها على عباده، أنهم كانوا قليلا فكثرتهم وأيدهم بنصره، ومدّهم بمدده. وتلك نعمة يمن الله تعالى بها على القلّة في عهد النبي ﷺ ويذكرهم بما كانوا فيه من القلّة والذلة، (... ثم ما نقلهم إليه من الإمكان والبسطة، ووجوه الأمان والحيطه، وقربهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القسم، وإدامة الحمد على جميل تلك النعم، فمهد لهم في ظل أبوابه مقيلا، ولم يجعل للعدوّ إليهم - بيمن رعايته - سبيلا... وورق الأشباح والظواهر من طيبات الغذاء، وورق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء. وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق في شهود المنعم).^(٩٥)

استجابة الله للقلّة الصابرة

القلّة المحمودة مجاب دعاؤها، مستجاب نداؤها؛ لأنها بذلت الأسباب وتوكلت على الوهاب، عرفت قوانين الله في النصر فاتبعتها، وأدركت سنن الهزيمة فاجتنبتها، والناظر في مثل القلّة الواردة في القرآن الكريم يجد ذلك واضحا بينا، فالقلّة المؤمنة مع طالوت حقق الله رجاءها واستجاب دعائها، وأعطاهما سؤلها، (وَأَقْرَعَ الصَّبْرَ عَلَيْهِمْ، وَتَبَّتْ أَقْدَامُهُمْ، وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ: جَالُوتَ وَجُنُودِهِ وَحَقَّقَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّنَ مَنْ قَالَ: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ)^(٩٦)؛ وذلك جريا على سنة الله الماضية من أن الله ﷻ {مَعَ الصَّابِرِينَ} بالنصر والمعونة.^(٩٧)، (والإثابة)^(٩٨).

(٩٤) تيسير الكريم الرحمن: (٨٠١).

(٩٥) لطائف الإشارات: (٧١٦ / ١)، بتصرف يسير.

(٩٦) مفاتيح الغيب: (٥١٥ / ٦).

(٩٧) تفسير العز بن عبد السلام: (٦٣٢ / ١).

(٩٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٢٥١ / ١).

والمتتبع للآيات الكريمة التي صورت تأييد الله ﷻ للقلّة الصابرة، ومعونته لهم، يدرك كيف نسب الله ﷻ الدفع إلى نفسه مباشرة مع أن القلّة المؤمنة هي المدافعة، وهي المقاتلة، وهي المباشرة لتلك الأسباب الحسية والمعنوية التي مصيرها النصر والتأييد لبيان تلك السنة التي لا تتخلف حينما يأخذ البشر بأسباب الله ﷻ، ويحسون التعامل مع سننه، (وقد نسب (عز اسمه) الدفع إلى نفسه؛ لأنه سنة من سننه في المجتمع البشري، وعليه بني نظام هذا العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها)^(٩٩).

إنها السنة التي لا تتخلف ولا تتأجل وقانون الله ﷻ الماضي في عباده، ومن حرص على نصر الله له وتأييده دعوته فليسلك سبيل القلّة المؤمنة التي وفّت لله بسننه ووفى الله ﷻ لها بعدله وعطائه. وإذا كانت تلك صفات القلّة المحمودة للقلّة بعض الصفات المذمومة كذلك، وهذا ما نتناوله في الصفحات القادمة إن شاء الله ﷻ.

(٩٩) تفسير المراغي: (٢ / ٥٢٢).

المبحث الثالث

القلة المذمومة وصفاتها

القلة الواردة في القرآن الكريم كما مر بعضها محمود، وهذا وقفنا على صفاته، وعرفنا أهم ما يميزه، أما القلة المذمومة فقد عرض القرآن الكريم لها كذلك بيانا لصفاتها، وتعريفاً لملاحمها؛ كي تحذرها كل قلة تريد الشهود الحضاري، وتحقق خيرية الأمة، وهي رسالتها وهدفها في سبيل مرضات الله ﷻ، ومن تتبع تلك الأوصاف ندرك أن الوصف بالقلة المذمومة ورد في مواطن متعددة، منها: وصف متاع الحياة وزخرفها بالقلة، ووصف زمان الكافرين بأنه قليل، ووصف متاع أهل سبأ بالقلة بعد أن جحدوا نعمة الله ﷻ، ووصف اللبث في الدنيا كلها بالنسبة للآخرة بالقلة، ووصف سكنى من بطروا معيشتهم في الدنيا بالقلة، ووصف متاع الجاحدين وطعام المجرمين بأنه قليل، كما وردت القلة في وصف شكر عموم الناس، ووصف إيمانهم، وتذكيرهم، وفي الصفحات الآتية نعالج صفات القلة المذمومة على النحو الآتي:

متاع الحياة الدنيا قليل

الدنيا ظل زائل، ومتاع حائل، وعرض لا يبقى ولا يدوم، متاعها مهما كثر قليل، وعطاؤها مهما زاد ضنين، وقد ورد وصف متاعها بالقلة، في مقام الذم في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَتَفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة النحل: ١١٦، ١١٧.

أي: متاعهم هذا في الدنيا قليل، قال الزجاج في معاني القرآن: (المعنى متاعهم هذا الذي فعلوه متاع قليل).^(١)

والقرآن الكريم يبين للجاحدين هنا أن ما يبذلونه في الدنيا من أجل حصولهم على متاعها، وما يفترونه رغبةً في نعيمها قليل، لا يستحق هذا العناء والبلاء، أي: (ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في الآخرة).^(٢) وهو ليس شيئاً مذكورا إذا قيس بالمضار التي يعاقبون بها على افترائهم، (متاعٌ قليلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، أي: إن (المنافع التي) قد تحصل لهم على ذلك في الدنيا لا يعتد بها في نظر العقلاء إذا ووزن بينها

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٣ / ٢٢٢).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٣ / ٤٤٢).

وبين المضارّ التي في الآخرة، فما متاع الدنيا إلا ظل زائل ثم يفنى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم بما اجتروا من السيئات، ودنّسوا به أنفسهم من أضرار الإثم والفجور والكذب على بارئهم الذي خلقهم وصوّرهم فأحسن صورهم، ونحو الآية قوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ سورة لقمان: ٢٤. (٣)

وجملة (متاع قليل) استئناف بياني لما سبق، وهو تعليل لنفي الفلاح عن الذين يفترون على الله الكذب؛ (فإنهم بافترائهم الكذب قد خسروا خسارنا مبينا.. ذلك أن هذا الذي عاد عليهم من كذبهم وافترائهم، هو شيء تافه، استرضوا به أهواءهم في هذه الحياة الدنيا، فأوقعهم في هذا الذي هم فيه، من عدوان على حرّيات الله، وعصيان الله، وشرك به.. وذلك هو الخسران المبين!) (٤).

وهي دعوة لكل قلة رائدة أن تتخلى عن صفات القلة المذمومة من بهرّ بمتاع الحياة القليل، وبيع للقيم العالية، وتنازل عن المبادئ السامية؛ فكل ذلك في جنب الآخرة قليل، (وفي هذه الآية تلقين جليل وعظة اجتماعية مستمرة المدى، فأى مجتمع أراد أن يحتفظ بأسباب القوة والعزّة والحياة المطمئنة والرزق الميسور عليه أن يلتزم حدود الله في الإخلاص له والعدل والإحسان وسائر الأعمال الصالحة، وأن يعترف بفضله، ويداوم على ذكره وشكره وأن يتعد عن كلّ ما فيه ظلم وإثم وبغي ومنكر وانحراف وإسراف. فإذا أخلّ بذلك اختلّت شؤونه وانفرط كيانه وغدا عرضة للنوائب والكوارث.) (٥)

ووصف متاع الحياة بالقلّة هنا وتحذير المقبلين عليه بأنهم يبيعون من أجله كل غال، ويترخصون في سبيله بكل سبيل وصف في مقام الدم، وهو وصف ثابت ثبات سنن الله ﷻ لا يتغير ولا يتبدل.

صفاء زمان الكافرين في الدنيا قليل

وتمضي آيات القلة تصور للواعبين في كل زمان ومكان أن صفاء زمان الكافرين في الدنيا قليل، حتى تكون الأمة على بصيرة بسنن الله ﷻ في المكذبين، وليكون ذلك تسرية وتطمينا للدعاة والمصلحين، أن هؤلاء وإن صفا لهم زمانهم إلا أنه صفاء قليل، لا يلبث أن يأتيه الكدر، ويعقبه البلاء، فهم ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ سورة المؤمنون: ٤٠ أي: (عن وقت قليل ليندمن

(٣) تفسير المراغي: (٤١ / ٥٥١)، بحر العلوم: (٢ / ٥٩٢).

(٤) التفسير القرآني للقرآن: (٧ / ٧٨٣).

(٥) التفسير الحديث: (٥ / ٥٩١).

على تكذيبهم لك، وذلك حين ينزل بهم العذاب.)^(٦)

وورود (ما) هنا يؤكد هذه القلة، والصفاء الذي لا يدوم، و«ما» صلة لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة. لِيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ عَلَى التَّكْذِيبِ إِذَا عَانُوا الْعَذَابَ.)^(٧) وهي تفيد القلة في الصفاء، والقلة في زمان الصفاء، و(ما) (... مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد... و«قَلِيلٌ» صفة لزمن محذوف، أي: عن زمن قليل.)^(٨)

وهذا الندم الذي سيعاينونه عند رؤية العذاب إنما هو بسبب عنادهم وبعدهم عن الحق، وإصرارهم على ما هم فيه من الكفر، (عَمَّا قَلِيلٍ مِّنَ الزَّمَانِ لِيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، وَ(ما) فِي: «عَمَّا قَلِيلٍ» مَزِيدَةٌ بَيْنَ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ لِلتَّوَكِيدِ لِقَلَّةِ الزَّمَانِ، أَي: بعد زمان قليل ليصيرن نادمين على التَّكْذِيبِ)^(٩)، (ليصيرن مكذبوك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا، وستحل بهم نقمتنا، ولا ينفعم الندم حينئذ.)^(١٠).

ووصف زمن صفائهم بالقلة هنا وصف في موطن الذم، وموضع الإنكار، وهو سنة ماضية في الجاحدين والمنكرين أنهم لا يطول أمانهم ولا يستمر نعيمهم، بل تأتيهم عقوبتهم ليلاً أو نهاراً فيصبحوا كأن لم يغنوا بالأمس؛ عبرة للناظرين وآية من آيات الله رب العالمين.

وصف متاع أهل سبأ

أهل سبأ أهل نعمة حاضرة، ومتاع مقيم، جمع من نضرة الدنيا أوعبها وأشملها: جنان نضرة، عن يمين وشمال، ورزق غدق لا يخشى فواته، ولا يتوقع نفاذه، وبلدة طاب نعيمها، وطاب أهلها، وتلك نعمة تستحق الشكر، وتستوجب البذل ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ سبأ: (١٦).

جمعت الآية الكريمة من نعيم الدنيا أوفره، ومن متاع الحياة أغزره، وعبرت الآية الكريمة عن هذا النعيم بدقة باهرة، ما يدعو إلى العظة، ويستجلب الشكر، فتقديم الجار والمجرور في: (لسبأ) يفيد الاختصاص، كأنه صنع لهم رغبة في انتفاعهم بالآيات، وسمى الله منازلهم سكناً

(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية: (٧/ ٥٦٩٤)، الوجيز للواحيدي: (٧٤٧).

(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٤/ ٨٨).

(٨) اللباب في علوم الكتاب: (٤١/ ٤١٢).

(٩) فتح القدير للشوكاني: (٣/ ٢٧٥)، التفسير المظهر: (٦/ ١٨٣).

(١٠) تفسير المراغي: (٨١/ ٣٢)، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: (٢/ ٨٨).

في قوله: (في مسكنهم)، وليس كل ما يعيش فيه المرء يسمى سكنا، إنما السكن ما جمع ما يُسكن النفس، وتُسكن إليه الروح، ويهدأ معه الإنسان وتنعم به الحياة، والتعبير بلفظ: (آية)، إرشاد إلى غرابة ما لديهم من النعيم، ووفرة ما عندهم من المتاع، حتى كان ذلك عجيبة من العجائب، والتعبير عن الزروع والحدايق بالجنة فيه ما فيه فليس كل بستان جنة إنما البستان الجنة ما تتكاثر أشجاره، وتتعاقد أغصانه حتى يستر الداخل عن الخارج، والخارج عن الداخل فتتكاثر ظلاله، وتتوارد ثماره، ويستطاب هواؤه، ويرق عليه، والتعبير: (عن يمين وشمال)، تعبير رائع فائق ففي كل اتجاه تنظره تجد الجنان التي تريح النظر، وتهدئ خاطر، والتعبير بلفظ (رزق) فيه من الإكرام ما فيه، واختيار لفظ الربوبية التي تفيض إنعاما وعطاء، من جملة النعيم، ولكنهم بدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار، (بينما شجر القوم خير الشجر، إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم).^(١١) (وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ بِاللَّهِ، وَتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ وَعَدُوْلِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ)^(١٢)؛ (أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة لشدة تدفقه، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت. وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة: «وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ». والخمط شجر الأراك أو كل شجر ذي شوك. والأثل شجر يشبه الطرفاء. والسدر النبق. وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل! «ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا». والأرجح أنه كفران النعمة).^(١٣)

ووصف متاعهم بالقلّة هنا وصف في مقام الذم؛ لأنه في مقام العقوبة على ما قدموا، والجزاء على ما اقترفوا من نكران النعم، وهذه سنة الله ﷻ في جحد النعمة بعد معرفتها والتمتع بها، وهي سنة لا تتبدل ولا تتحول.

(١١) جامع البيان: (٤٨٣ / ٠٢).

(١٢) تفسير ابن كثير، ت سلامة: (٦ / ٨٠٥).

(١٣) في ظلال القرآن: (١٠٩٢ / ٥)، تفسير المراغي: (٢٢ / ٠٧).

لبث الدنيا مهما طال قليل

ومن المواطن التي ورد فيها ذم القلّة وصف المكث في الدنيا للمكذّبين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سورة الإسراء: ٥٢. خاصة لهؤلاء الذين يعيشون فيها فساداً، مكذّبين منكرين، جاحدين، فتأخذهم نوازل الآخرة، وقبلها نوازل القبر فيرون أن الدنيا بالنسبة لما يعاينونه قليلة قصيرة، فيقول الله ﷻ لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (أفحسبتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم، لعبا وباطلا وأنكم إلى ربكم بعد مماتكم لا تصيرون أحياء، فتجزون بما كنتم في الدنيا تعملون؟) (١٤)، ومعناه: (ما لبثتم إلا قليلاً). (١٥) ووصف الله تعالى لبثهم في الدنيا بالقلّة بالنسبة لما يلاقون في الآخرة، وساعات الصفاء قليلة تمر سريعة، وساعات المشقة بطيئة ثقيلة، كما قال أبو تمام

أعوام وصلّ كان يُنسي طولها ذكر النوى، فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أردفت بجوى أسي، وكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام (١٦)

وإنما سمي الله لبثهم في الدنيا قليلاً: (لأنّ الواحد وإن طال مُكثُّه في الدُّنيا فإنّه يَكُونُ قَلِيلًا فِي جَنبِ مَا يَلْبَثُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ لُبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْقَبْرِ مُتَنَاهٍ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ، أَي: مَا لَبِثْتُمْ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا قَلِيلًا، سَمَاءُ قَلِيلًا، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، قدر لبثكم في الدنيا) (١٧)

(استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها، لأنّ המתحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدعة إليها. أو لأنهم كانوا في سرور، وأيام السرور قصار، أو لأنّ المنقضي في حكم ما لم يكن، وصدقهم الله في مقالهم لسني لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها) (١٨)

(١٤) جامع البيان: (٣٨ / ٩١).

(١٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٥٢ / ٤).

(١٦) انظر: شرح ديوان أبي تمام: ٣٧/٢، ط: دار الكتاب العربي، ط الثانية، ٤١٤١هـ، ٤٩٩١م، الوساطة بين المتنبّي

وخصومه: ٢٢/١.

(١٧) تفسير البغوي: (٧٧٣ / ٣).

(١٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٥٠٢ / ٣).

سكنى من بطروا معيشتهم في الدنيا قليلة

ومن المواطن التي ورد فيها وصف القلة بالذم وصف سكنى من بطروا معيشتهم، وصف القرآن سكناهم بأنها لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، قال ﷺ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ سورة القصص: (٥٨).

والمعنى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ فِيهَا مَضَى بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا يَعْنِي: كَفَرَتْ بِرِزْقِ رَبِّهَا. ذَكَرَ الْقَرْيَةَ، وَأَرَادَ بِهِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْبَلُونَ فِي رِزْقِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَمْ يَشْكُرُوهُ فِي نِعْمَتِهِ. وَيُقَالُ: بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا يَعْنِي: طَعُوا فِي نِعْمَةِ اللَّهِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا. وَيُقَالُ: عَاشُوا فِي الْبَطْرِ وَكُفَرُوا بِالنِّعَمِ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ يَعْنِي: انظروا واعتبروا في بيوتهم وديارهم بقيت خالية لم تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَهُمْ الْمَسَافِرُونَ يَنْزِلُونَ بِهَا يَوْمًا أَوْ سَاعَةً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ يَعْنِي: نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.)^(١٩)

(لم يعرفوا قدر نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أحوالهم، وانتظام أمورهم، فهاجروا في أودية الكفران على وجوههم، فخرّوا في أودية الصغار على أذقانهم، وأذاقهم الله من كاسات الهوان ما كسر خمار بطرهم فأماكنهم منهم خالية، وسقوفها عليهم خاوية، وغربان الدمار فيها ناعبة)^(٢٠)

(إن بطل النعمة، وعدم الشكر عليها، هو سبب هلاك القرى. وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن فليحذروا إذن أن يبطروا، وألا يشكروا، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها الدائرين خاوية خالية.. «لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا» وبقية شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروى قصة البطر بالنعمة وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحداً، ولم يرثها بعدهم أحد «وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ».)^(٢١)

متاع الجاحدين في الدنيا قليل

ومن مواطن القلة المذمومة: وصف متاع الجاحدين في الدنيا بأنه قليل، سواء كان طعاماً أو شراباً أو أي صورة من صور المتاع، قال ﷺ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ سورة لقمان: (٢٤) والمعنى: (نُمَتِّعُهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَهْلًا قَلِيلًا يَتَمَتَّعُونَ، ثُمَّ نُورِدُهُمْ عَلَىٰ كُرْهِ مِنْهُمْ عَذَابًا غَلِيظًا، وَذَلِكَ عَذَابُ النَّارِ، تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا، وَمَنْ عَمِلَ يَقْرَبُ مِنْهَا.)^(٢٢) والعذاب

(١٩) بحر العلوم: (٢/ ٤١٦).

(٢٠) لطائف الإشارات: (٣/ ٤٧).

(٢١) في ظلال القرآن: (٥/ ٤٠٧٢).

(٢٢) جامع البيان: (٨١/ ٠٧٥).

في الدنيا، (يَعْنِي: إِلَى مَوْتِهِمْ) (٢٣)، أي: (بمهلهم في الدنيا إمهالاً قليلاً ووقتاً قليلاً). (٢٤)

والله ﷻ يبين للمؤمنين الصادقين أن متاع هؤلاء لا يدوم؛ فلا يغرنكم ما هم فيه، فهو ظل زائل، وعارية مستردة، يتليهم الله بها ويتلي بها غيرهم، فكأنه ﷻ يقول: (لَا تَنْظُرُوا إِلَى مَا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مُتْرَفُونَ فِيهِ، مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ، وَيُصْبِحُونَ مُرْتَهِنِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَإِنَّمَا تَمُدُّ لَهُمْ فِيهَا هُمُ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا، وَجَمِيعَ مَا هُمْ فِيهِ ﴿٢٥﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٥﴾)

القلة المذمومة في العدد

كثر ورود القلة في العدد في القرآن الكريم في موطن المدح، وهنا وردت القلة في العدد في موطن الذم وهذا من المواطن القليلة الورد في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلٌ عَدَدًا﴾ سورة: الجن: (٢٤).

والوصف بقلة العدد هنا من مواطن الوصف بالقلة المذمومة، ومعنى الآية الكريمة: (إذا عاينوا ما يعدهم ربهم من العذاب وقيام الساعة (فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلٌ عَدَدًا)، أجدد الله الذي أشركوا به، أم هؤلاء المشركون به) (٢٦)، (فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي. بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ، وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون- إما في الدنيا وإما في الآخرة- «مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلٌ عَدَدًا» وأي الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل!) (٢٧)

قلة شكر عموم الناس

ورد الوصف بالقلة لشكر عموم الناس في القرآن الكريم في مواطن متعددة منها قول الله ﷻ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الملك: (٢٣)، وقوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ سورة الأعراف: (١٠)، وقوله:

(٢٣) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٣/ ٧٧٣)، تفسير السمعي: (٤/ ٥٣٢)..

(٢٤) الهداية إلى بلوغ النهاية: (٩/ ٥٣٧٥).

(٢٥) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩١).

(٢٦) جامع البيان: (٣٢/ ١٧٦)، تفسير ابن فورك: (٣/ ٦٦).

(٢٧) في ظلال القرآن: (٦/ ٧٣٧٣).

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ سورة السجدة: (٩) (يعني بالقليل أنهم لا يشكرون رب هذه النعم في حسن خلقهم فيوحدونه) (٢٨) أي: (قليلًا ما تشكرون ربكم على هذه النعم التي أنعمها عليكم). (٢٩)

ودلهم الله ﷻ على موطن المؤاخذة وهو أنهم لم يسخروا النعم فيما خلقت لها، فلم يسمعوها مراد الله، ولم يأتروا بأمره وينتهوا بنهيها، ولم يعقلوا عنه، وهو الذي خلقهم لذلك، (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ يَعْنِي: خَلَقَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ لِكَيْ تَسْمَعُوا بِهَا الْحَقَّ، وَالْأَبْصَارَ يَعْنِي: لِكَيْ تَبْصُرُوا، وَالْأَفْئِدَةَ يَعْنِي: الْقُلُوبَ لِكَيْ تَعْقِلُوا بِهَا الْهُدَى. قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ يَعْنِي: شَكَرْتُمْ فِيمَا صَنَعَ إِلَيْكُمْ قَلِيلًا. وَيُقَالُ: مَعْنَاهُ خَلَقَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ آلَةَ طَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَقَطْعًا لِحُجَّتِكُمْ، وَقُدْرَةَ عَلَى مَا أَمْرَكُمْ فَاسْتَعْمَلْتُمُ الْآلَاتِ فِي طَاعَةِ غَيْرِهِ وَلَمْ تُوْحِدُوهُ. (٣٠)

(ذكر عظيم منته عليهم بأن خلق لهم هذه الأعضاء، وطالبهم بالشكر عليها. وشكرهم عليها استعمالها في طاعته فشكر السمع ألا تسمع إلا بالله والله، وشكر البصر ألا تنظر إلا بالله الله، وشكر القلب ألا تشهد غير الله، وألا تحب به غير الله). (٣١)

ولعل السر في تخصيص السمع والأبصار والأفئدة لأنها مواطن الانتفاع في الحياة، ولأنها (يتعلق بها من المنافع الدينية والدينيوية ما لا يتعلق بغيرها. ومقدمة منافعها أن يعملوا أسمعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم. ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها، كما قال الله ﷻ: ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ سورة الأحقاف: ٢٦. ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وأن لا يجعل له ند ولا شريك، أي: تشكرون شكرا قليلا، وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا) (٣٢)

وفي الآية الكريمة تنبيه على أن هذا العطاء لمهمة، وأن إغفال الإفادة من هذه النعم مجلبة للوم والذم، ناهيك عن العتاب والعقاب، (كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالُ: أَعْطَيْتُكُمْ هَذِهِ الْإِعْطَاءَاتِ الثَّلَاثَةَ مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى الشَّرِيفَةِ، لِكِنَّكُمْ ضَيَعْتُمُوهَا فَلَمْ تَقْبَلُوا مَا سَعَيْتُمُوهُ وَلَا اعْتَبَرْتُمْ بِمَا أَبْصَرْتُمُوهُ، وَلَا تَأَمَّلْتُمْ فِي عَاقِبَةِ مَا عَقَلْتُمُوهُ، فَكَأَنَّكُمْ ضَيَعْتُمْ هَذِهِ النِّعَمَ وَأَفْسَدْتُمْ هَذِهِ الْمَوَاهِبَ،

(٢٨) تفسير مقاتل بن سليمان: (٣ / ٩٤٤).

(٢٩) جامع البيان: (٣٢ / ٧١٥).

(٣٠) بحر العلوم: (٣ / ٨٧٤).

(٣١) لطائف الإشارات: (٢ / ٣٨٥).

(٣٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣ / ٨٩١)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٤ / ٩٣)

فَلِهَذَا قَالَ: قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَذَلِكَ لِأَنَّ شُكْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ ﷻ هُوَ أَنْ يَصْرِفَ تِلْكَ النِّعْمَةَ إِلَى وَجْهِ رِضَاةٍ، وَأَنْتُمْ لَمَّا صَرَفْتُمْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْعَقْلَ لَا إِلَى طَلَبِ مَرْضَاتِهِ فَأَنْتُمْ مَا شَكَرْتُمْ نِعْمَتَهُ أَلْبَتَةَ(٣٣)

قلة إيمان المدعويين

من المواطن التي ورد فيها ذم القلة، أو التعبير عنها في مقام الذم، وصف إيمان المدعويين بالقلة، وورد ذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ سورة: الحاقة: (٤١). والمعنى: (أقلكم من يؤمن)(٣٤)

والقلة هنا تدل على العدم، أو الوجود غير المفيد فهو أشبه بالعدم، أي: (لا تصدقون بأن القرآن من عند الله، وأريد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً، كما تقول لمن لا يزورك: قلّ ما تأتينا، وأنت تريد: لا يأتينا أصلاً)(٣٥)، (أي: لا تؤمنون أصلاً)(٣٦)، فالقلة بمعناها الأصلي، أو دلالتها الفرعية على العدم هنا في موطن الذم.

قلة تذكر المدعويين

من المواطن التي ورد فيها الحديث عن القلة في مقام الذم، وصف تذكر المدعويين بالقلة، وقد ورد ذلك في مواطن متعددة منها قوله ﷻ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة: الحاقة: (٤٢). وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ سورة غافر: (٥٨)، وقوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة النمل: (٦٢). والتذكر هنا بمعنى الاتعاظ، يقول الطبري: (قليلًا ما تعتبرون به)(٣٧) أو: (قليلًا ما تتعظون وتعتبرون فتراجعون الحق)(٣٨)، أو أن المراد أقلكم المتذكر، فالقلة هنا إما في فعل التذكر، وإما في عدد المتذكرين، أو المراد قلة زمن التذكر(٣٩)

(٣٣) مفاتيح الغيب: (٥٩٥ / ٠٣).

(٣٤) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٣٣ / ٥).

(٣٥) التفسير الوسيط للواحدى: (٨٤٣ / ٤).

(٣٦) تفسير السمعاني: (٢٤ / ٦).

(٣٧) جامع البيان: (٢٩٥ / ٣٢)، بحر العلوم: (٢٩٤ / ٣).

(٣٨) جامع البيان: (٩٩٢ / ٢١).

(٣٩) راجع: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٢١١ / ٢)، التفسير المظهرى (٧٥ / ٠١)، بتصرف يسير.

والمراد من القلّة هنا: إما الندرة، وإما العدم، على عادة القرآن الكريم في التعبير بالقلّة على العدم أو الفعل غير المفيد الذي وجوده كالعدم، وتذليل الآية الكريمة بنفي التذکر إشارة على وضوح هذه النعم التي دلهم القرآن عليها، (وما مزيدة لتأكيد معنى القلّة التي أريد بها العدم أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى وفي تذليل الكلام بنفي التذکر عنهم إيدانٌ بأنّ مضمونهُ مركوزٌ في ذهنِ كلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ وأنّه من الوضوح بحيث لا يتوقفُ إلا على التوجه إليه وتذكره)^(٤٠).

وقد يكون المراد من القلّة: الوجود القليل، وذلك ما كان يظهر منهم على ندرة، (وَالْقَلَّةُ هُوَ إِقْرَارُهُمْ إِذَا سُئِلُوا مَنْ خَلَقَهُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ)^(٤١) وقد قرئ بالغبية، ولها دلالة إضافية، هي: (الإيدان باقتضاء سوء حالهم في عدم الامتثال بالأمر والنهي وصرف الخطاب عنهم وحكاية جنائياتهم لغيرهم بطريق المبالاة)^(٤٢)

النعي على من يشتري بآيات الله ثمنا قليلاً

كل عوض عن آيات الله قليل، فلا يشتري بها سواها، ولا يعدل بها غيرها، فمن ذا الذي يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟، ولقد وردت القلّة في موطن الذم في النعي على من يشتري بآيات الله ثمنا قليلاً، قال ﷺ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، سورة النحل: (٩٥). أي: (لَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ، وَلَوْ حِيزَتْ لِابْنِ آدَمَ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا لَكَانَ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُ، أَي: جَزَاءُ اللَّهِ وَثَوَابُهُ خَيْرٌ لِمَنْ رَجَاهُ وَآمَنَ بِهِ وَطَلَبَهُ، وَحَفِظَ عَهْدَهُ رَجَاءً مَوْعُودِهِ)^(٤٣)

ومن نظر إلى موعود الله ﷻ ونظر إلى الدنيا استقل الدنيا بما فيها ومن فيها، فلا يختار على مراد الله شيئاً، ولم يمنعه من تنفيذ أمره عرض من أعراض الدنيا، (فلا تختاروا على القيام بحقّ الله والوفاء بعهدده عوضاً يسيراً مما تنتفعون به من حطام دنياكم من حلالكم وحرامكم، فإنّ ما أعدّ الله لكم في جناته - بشرط وفائكم لإيمانكم - يوفى ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم).^(٤٤) ذلك أن (كل ما في الدنيا قليل)^(٤٥)

(٤٠) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (٦ / ٥٩٢).

(٤١) البحر المحيط في التفسير: (١ / ٥٦٢).

(٤٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (٣ / ١١٢).

(٤٣) تفسير ابن كثير: (٤ / ١٠٦).

(٤٤) لطائف الإشارات: (٢ / ٨١٣).

(٤٥) أيسر التفاسير للجزائري: (٣ / ٤٥١).

المبحث الرابع سنن الله في القلة

الناظر في آيات القلة في القرآن الكريم يجد أنها تمضي في خط واحد، وتسعى إلى هدف محدد، بما يبرز صورة متكاملة عن قضية كلية، لها ملامحها وسماتها، ولها أصول جامعة، ونظائر متناسقة، ويمكن أن نرصد تلك السننية في خطوتين:

- الأولى في بيان ملامح الترابط السنني في آيات القلة.
- والثانية في بيان الأصول الجامعة لقضية السننية في القلة

ملامح الترابط السنني في آيات القلة

الناظر في آيات القلة الواردة في القرآن الكريم يجد هذا الخيط الدقيق الرقيق الذي يربطها ويجمعها من أولها إلى آخرها، لا تنقض آية أختها، ولا تشاكسها ولا تعكر صفوها، ولا تكدر رواءها، بل تمشي في مسارها، وتؤكد عطاءها، وترسخ دلالتها، سواء ذلك في وصف الفئة المؤمنة التي اتبعت نوحا عليه السلام، وآمنت به إذ كذبه الناس، وناصرته إذ تخلى عنه البشر، القريب والغريب والصديق والعدو حتى ابنه الذي هو من صلبه، تخلى عن دعوته وهجر رسالته.

والفئة القليلة من قوم نوح هي، هي، التي وصفها قومها بأنهم أراذل بل (أراذلنا)، وأنهم متسرعون في الإيمان (بادي الرأي)، وأنهم ليس لهم على قومهم فضل ولا سبق، وهذه الصفات وتلك الخيوط الدقيقة التي وقفنا أمامها تفصيلا لدى الحديث عن صفات القلة، هي التي تتكرر في كل قلة، بما يؤكد خط السننية في تلك الآيات الكريمة، كما تلمح التهم نفسها والصفات ذاتها تتكرر في اتهام قريش أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، ورغبة أهل مكة في أن يجعل لهم الرسول يوما وهؤلاء يوما حتى نزل القرآن الكريم ينهى رسول الله عن ذلك ويصف هؤلاء

القلة بأنهم ﴿يريدون وجهه﴾، سورة الكهف: ٢٨، ويأمر نبيه بأن لا يعدو وجهه عنهم بقوله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٧٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٧٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٧٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٨٠﴾ سورة الكهف، ٢٨، ٢٩.

وبنهاه عن طردهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ سورة الأنعام: ٥٢، ٥٣.

فهؤلاء الذين وصفوا بالقلّة قديما وحديثا وفي واقعنا الذي نعيشه وتؤكد فيه سنن الله ﷺ تأكدا يبرهن على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان واستيعابه لشؤون الدنيا والآخرة، هؤلاء هم خلاصة قومهم وبقية جنسهم وجوهر أهل زمانهم، وهم الذين وعدوا بالنصر في كل زمان لتحقيق شروط النصر فيهم وهم أهل الابتلاء والاختبار، والفرز والتمحيص، وهم دائما لحمة واحدة، تلمح ذلك في حديث الآيات عن أتباع نوع ﷺ وفي بيانات القرآن المتعددة وعباراته الموحية الموجهة، في مثل قوله: (وما نرى لكم)، وقوله: (بل نظنكم)، وقوله: (ومن آمن)، كما تلمح هذا التماسك في الفئة المؤمنة مع طالوت في قوله: (هو والذين آمنوا معه)، وقوله: (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)، وقوله: (فهزموهم بإذن الله).

والفئة التي آزرت رسول الله ﷺ وأمنت به، تبدو فيها هذه الصفات التي بدت في قوم نوح وفي الذين ناصروا طالوت من عدم الاحتفال بالمال والجاه والمنصب والسلطان، وأنهم المسارعون إلى التصديق بالنبوة والرسالة، وهم الذين جمعهم الإسلام وألف بينهم فكانوا (فئة)، يفى بعضهم إلى بعض، ويتضام كل أخ إلى أخيه، حتى يصير به وله عضدا وأزرا، حتى أذاب هذا الدين فوارق الجنس واللون والعرق واللسان والزمان والمكان، فصارت جنسيتهم دينهم كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده رحمته الله، فأصبح عمر العدوي، وأبو بكر التيمي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي في الله إخوة، وأهل مكة أحزاب وشيع وإن كانوا من قريش:

إن العروبة في بدر قد اقتتلت سيفا لسيف وكان الكل عربانا
فهل أبو جهل في غيه وأبو لهب كخالدٍ قاد باسم الله فرسانا
عروبتان فذي نور وذو ظلم شتان بينهما، شتان، شتاننا
فإن نضح به يا أهل أمتنا فإن أمتنا أولى ضحايانا^(٤٦)

(٤٦) من قصيدة للدكتور حسان تحتوت، رحمه الله ألقاها في محاضرة بعنوان: (جراح وأفراح)، في جامعة العين.

إن تلك القلّة قديما وحديثا وفي كل زمان ومكان هم السابقون إلى الإيمان، وهم أهل العلم والفقّه، وهم الواعون الواعبون لسنن الله في الحياة والأحياء، وهم أصحاب العزم والحزم، والإرادة الماضية النافذة التي تعوض قلة العدد بكثرة الشر وتعوض الكم بالكيف وهم في كل زمان على صلة بالله عبادة ودعاء وصلة ورجاء، وهم مثال في الصبر والثبات وطاعة القواد تلمحهم مع طالوت يمتنعون عن الشرب وإن كان أمرا حيويا، ويعبرون معه النهر وهم يرون عدوهم يزيد في العدد والعدد والقوة والسلاح والعتاد، وهم مع رسول الله ﷺ (يروّحهم مثلهم رأي العين)، ولكن الله يلقي في قلوبهم السكينة، ويغشيهم النعاس أمانة منه، ويثبت أقدامهم، ويربط على قلوبهم.

كما تجد الآيات التي تصف القلّة يربطها خيط واحد واضح من علاقتهم بالحياة والأحياء، كوصف متاع الحياة الدنيا بأنه قليل، وأن أمان الكافرين في الدنيا يزول ولا يدوم، وصف عموم الناس بقلّة الشكر، وقلّة التذكر وقلّة العلم وقلّة الفهم وقلّة العقل، والخيط الجامع لهذه الأشياء هي الحياة وما فيها وما يدور حولها، ويغري الناس بها.

ولا شك أن هذا كله يؤدي بعد جمعه إلى تكوين صورة صحيحة فصيحة دقيقة واضحة عن القلّة مدحا وذما، وإبراز موقف القرآن منها، وتلك منهجية القرآن في رسم صورة واضحة المعالم بينة الملامح عن القلّة التي تناولها، تسلم كل آية إلى أختها، في تناسق بديع يمهد فيه السابق للاحق ويؤكد فيه اللاحق على السابق في تناغم واتساق.

الأصول الجامعة لقضية السننية في القلّة

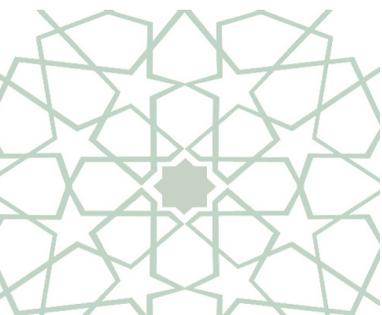
بعد رصد الآيات التي تناولت القلّة مكية ومدنية، وسواء كانت تلك القلّة في الأفراد أو الأمم أو الأشياء ودرسها وتأمل دلالاتها يمكن أن نستخلص في نقاط السنن الماضية والأصول الجامعة في قضية القلّة على النحو التالي:

١. أنهم السابقون إلى الإيمان والصابرون على ابتلاءاته.
٢. أنهم الثابتون في الأزمات والاختبار.
٣. أنهم يُختارون بعد ابتلاء واختبار.
٤. أنهم الناصرون للحق والدعوات.
٥. أنهم الشاكرون قولاً وعملاً.
٦. أنهم فقهاء علماء واعون بالدنيا واعبون بالحياة.

٧. أنهم عالمون بالسنن والنواميس الجارية والخرافة، في الحياة والأحياء.
٨. أنهم عادلون في الشركة لا ييغون في الخلطة.
٩. أنهم الراضون بعباء الله وقضائه.
١٠. أنهم خلاصة زمانهم وبقية جيلهم.
١١. أنهم المنصورون المؤيدون.
١٢. أنهم دائماً لحمة واحدة.
١٣. أنهم لا يحفلون بالمال ولا يأبهون بالجاه والملك والسلطان.
١٤. أنهم أصحاب العزم.
١٥. شدة صلّتهم بالله ﷻ، وحسن ثنائهم عليه.
١٦. أنهم أقدر الناس على الثبات وطاعة القواد.
١٧. لا يحتنكهم الشيطان.

تلك بعض الأصول الجامعة التي يمكن أن تصور لنا سنن الله ﷻ في القلّة في ضوء الآيات الكريمة والتي يمكن أن يفيد منها المسلمون عامة والمعنيون بنهضة الأمة خاصة وسيبين ذلك في صفحات آتية لدى الحديث عن ريادة القلّة وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة، وفقه صناعة القلّة الرائدة.

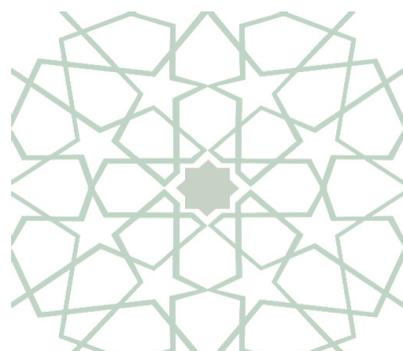
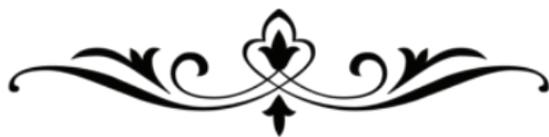


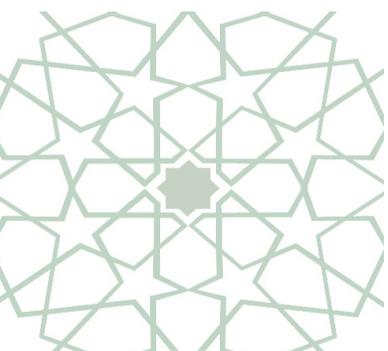




الفصل الثاني:

الكثرة مفهومها وصفاتها
وسنن الله فيها





المبحث الأول

مفهوم الكثرة في اللسان العربي والقرآن الكريم

وردت مادة الكثرة وتقلباتها في اللسان العربي مشتملةً على عدد من المعاني يمكن أن نتلمسها على النحو الآتي:

(الكثرة: نقيض القلة... وقد كثر الشيء فهو كثير. وقوم كثيرٌ، وهم كثيرون. وأكثر الرجل، أي كثر ماله.)^(١) (ويقال: كاثرتناهم فكثرتناهم، أي غلبناهم بالكثرة... واستكثرت من الشيء، أي أكثرت منه. والكثُر بالضم من المال: الكثير... والتكاثُر: المكاثرة. وعددٌ كاثِرٌ، أي كثيرٌ. قال الأعشى:

ولست بالأكثرٍ منهم حصي وإِنما العزّة للكاثِرِ

وفلان يَنكثِرُ بمال غيره... والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير... والكوثر من الغبار: الكثير.^(٢)

ويذكر ابن فارس في مقاييس اللغة أن (الكافُ والثاءُ والراءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ خِلافَ القِلَّةِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.)^(٣)

الفرق بين الكثير والوافر:

والفرق بين الكثرة والوفر: (أن الكثرة زيادة العدد، والوفر اجتماع آخر الشيء حتى يكثر حجمه.)^(٤) ومن تتبع المادة في كتب اللغة واللسان يتضح لنا أن المادة تدور حول معاني منها: أهما نقيض القلة. وتدل على التجمع. والغلبة. وزيادة العدد. ومن مشتقاتها ما يدل على السيد كثير الخير. وتدل على السخاء، و الدوام. والمادة تدل على الجماعات من الناس، و التباري في كثرة المال والعز، كما تستخدم في العدد والفضل.

تعبير القرآن الكريم عن الكثرة

ورد التعبير عن الكثرة في القرآن الكريم بصور متعددة، وألفاظ مختلفة، فورد التعبير عنها

بلفظ:

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (٢ / ٢٠٨).

(٢) لسان العرب: ٢٣١/٥، مادة: ك ث ر.

(٣) مقاييس اللغة: (٥ / ٠٦١).

(٤) الفروق اللغوية للعسكري: (٢٥٢)، لسان العرب: (٥ / ٢٣١)، القاموس المحيط: ٨٦٤.

كثُر، كَثُرَتْ، كَثُرَكُمْ، أَكْثَرْتُ، أَكْثَرُوا، اسْتَكْثَرْتُ، اسْتَكْثَرْتُمْ، تَسْتَكْثِرُونَ، كَثُرَتْ، كَثُرْتُمْ، كَثِيرٌ، كَثِيرَةٌ، أَكْثَرُ، أَكْثَرَكُمْ، أَكْثَرُهُمْ، تَكَاثَرُوا، كَوَثُرَ. كما ورد التعبير عنها بألفاظ أخرى من غير مادتها، مثل أساليب التكثير، وكم، ونحوها.

موقف القرآن الكريم من الكثرة

حين نتأمل الآيات التي ورد فيها لفظ الكثرة في القرآن الكريم، ونرد الأشباه والنظائر إلى أصول جامعة نجدها تتلخص في أمرين جامعين:
الكثرة المحمودة، والكثرة المذمومة.

أولاً: الكثرة المحمودة

وهي التي تناولها القرآن مادحا لها بذكرها في مواطن تدعو إلى أهميتها، وتحت على الإفادة منها، سواء كان ذلك على سبيل الامتنان على أصحابها بأنهم كانوا قليلا فكثرتهم الله، أو رغبة النبي ﷺ في الاستكثار من الخير لو كان يعلم الغيب، أو عفو الله ﷻ عن كثير من الذنوب منّا منه على عباده وفضلاً، أو الدعوة إلى تسبيح الله ﷻ وذكره كثيراً، أو منّهُ ﷻ على عباده بالغيث الكثير الذي يحيي به البلاد ويُقيت العباد، ويُنشئ لهم منه جنات من نخيل وأعناب لهم فيها فواكه كثيرة، وأثر كثرة ذكر الله ﷻ في عصمة المؤمنين من أن يقولوا ما لا يفعلون، أو منّ الله تعالى على عبده ونبيه ﷺ بالكثرة: النهر الكثير الخير، الذي لا يظمأ من شرب منه أبداً، أو من الله ﷻ على المؤمنين بكثرة نصره لهم في مواطن كثيرة، وتعديده ﷻ لكثرة من قاتل مع النبيين من الربانيين والمجاهدين، ومنّ الله ﷻ على عباده بكثرة الساجدين له من الخلق، واهتداء كثير من الناس بما يضره الله ﷻ لهم من الأمثال، أو وصفه تعالى لمن يؤت الحكمة بأنه قد أوتي خيراً كثيراً، وأنه لا يعقل ذلك ولا يفيدته إلا أولو الأبواب، أو منّهُ ﷻ على عباده بكثرة ما خلق من نسل آدم وحواء ودعوته إياهم أن يتقوه؛ شكراً لهذه المنّة ووفاء لتلك النعمة.

ثانياً: الكثرة المذمومة

وتبدو الكثرة المذمومة في القرآن الكريم من خلال تعبير القرآن وحديثه عنها في معرض الذم والإنكار، سواء كان ذلك على سبيل البيان؛ لأن كثيراً من الناس يضلون بأهوائهم بغير علم، أو بيان أن كثيراً من الناس عن آيات الله غافلون، أو بيان دعوى الأقسام أنهم لا يفقهون كثيراً مما يقوله الأنبياء والمرسلون، وتنكبهم الصراط المستقيم، وإضلال الأصنام لكثير من الناس، وأن كثيراً من القرون بين عاد وثمود هلكتوا بذنوبهم، وأن كثيراً منهم بلقاء ربهم كافرون، وإضلال الشياطين لكثير منهم، وبيان أن كثيراً من الخطاء يبغى بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأن هؤلاء قليلون، أو أن المرء لو أطاع أكثر من في الأرض لأضلوه عن سبيل الله، وبيان طبيعة أكثر الناس وأن أكثرهم لا يعلمون، ولا يعقلون، ولا يسمعون، ولا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون، وتمضي الكثرة في القرآن الكريم لتبين للناس أن أكثر أهل الكتاب لا عهد لهم، وأن كثيراً منهم فاسقون، وأن كثيراً منهم ساء ما كانوا يعملون، وأن كثيراً منهم عموا وطموا، وبيان أن الكثرة المعادية لله ﷻ لا تغني عن أصحابها شيئاً، أو أن الخبيث لا يساوي الطيب ولو أعجب الناس كثرة الخبيث، أو ذم كثير من أهل الكتاب الذين يودون أن يردوا المؤمنين عن إيمانهم، أو كثرة النجوى في غير أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس. ولنتناول الكثرة في القرآن بهذا الترتيب في الصفحات القادمة فنبدأ بالكثرة المحمودة وصفاتها وخصائصها كما وردت في القرآن الكريم.

المبحث الثاني

الكثرة المحمودة صفاتها وخصائصها في القرآن الكريم

إذا تتبعنا الآيات التي تصف الكثرة المحمودة في القرآن الكريم يمكن أن نتناولها على النحو الآتي:

امتنان الله - تعالى - على قوم صالح بكثرة العدد

كثرة العدد نعمة، إذا وضعت في مكانها، وأفيد منها على الوجه المرضي، وقديما كان العرب يتمدحون بها. والكثرة المحمودة نعمة من الله ﷻ، امتن بها على قوم صالح فقال في معرض تذكيرهم بنعمه عليهم، ودعوته أن يفيدوا من الكثرة في الدعوة إليه وليس الصد عن سبيله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ سورة الأعراف: (٨٦).

والكثرة هنا إما كثرة حقيقية بالعدد، أو كثرة عن طريق الغنى الذي يكثر القليل، ويقوي الضعيف، ويعطي للمرء في الحياة قيمته ومكانته، أو تكثير بالقوة بعد الضعف، أو بطول الأعمار بعد قصرها من قبل^(١)، أو تكون الكثرة بالبركة في النسل والمال^(٢). (من عليهم بتكثير العدد؛ لأن بالتناصر والتعاون تمشي الأمور ويحصل المراد. ويقال كما أن كل أمر بالأعوان والأنصار خيرا أو شرا، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار في الخير، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان في الشر.)^(٣) وفي تكثير عددهم إعزاز لهم وتقديم على غيرهم، مضت بذلك سنة الله في الكثرة عندما تكون كثرة محمودة تعز أهلها، وتعلي مكانهم.

(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ أَي: كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِقَلَّتْكُمْ فَصِرْتُمْ أَعَزَّةً لِكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ فَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أَي: مِنَ الْأُمَّمِ الْحَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِاجْتِرَائِهِمْ عَلَى مَعْاصِي اللَّهِ وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ.)^(٤) فأهلكهم الله وابتلاهم بنقص من الأموال والأولاد والثمرات، حتى صاروا أثرا بعد عين، وحديثا غابرا في الداترين.

(١) النكت والعيون: (٢ / ٩٣٢).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (٣ / ٨٤٢).

(٣) لطائف الإشارات: (١ / ٥٥٥).

(٤) تفسير ابن كثير: (٣ / ٢٠٤).

نوح وحرصه على بلاغ الرسالة وإكثاره من البيان لقومه

أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، ليخرج من شاء من عباده من الظلمات إلى النور، وأيد رسله بالحجج الباهرة والأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي ترشد الناس إلى الهدى، وتبعدهم عن الردى، وتهديهم إلى طريق الله رب العالمين، وبذل الأنبياء والمرسلون في سبيل بيان الحجة وتوضيح المحجة كل ممكن، ومن هؤلاء نوح عليه السلام الذي دعا قومه بكل سبيل، ونوع في دعوته بكل طريق، وسجل القرآن الكريم ذلك في سورة كاملة باسمه عليه السلام فقال على لسانه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ سورة: نوح: ٥-٩.

وقد اعترف قومه بذلك، وذكروا أنه أكثر من جداهم، والكثرة هنا في جانب نوح مدح له من حيث لا يشعرون، حيث حرص نوح عليه السلام على بلاغ الرسالة على الوجه الأكمل، وسجل القرآن الكريم هذا الحرص وكثرة جدال نوح عليه السلام بقوله: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ سورة هود: (٣٢). والمعنى: خاصمتنا يا نوح فأكثرت معنا، أو ماريتنا فأكثرت مراءنا، أو دعوتنا فأكثرت دعاءنا، ووعظتنا فأكثرت وعظنا، وحاججتنا فأكثرت حجاجنا^(٥).

ولقد سلك نوح معهم في بلاغ الرسالة ما سجله له القرآن وشهد به الواقع، فقلب لهم في وسائل الدعوة بين الليل والنهار والسر والإعلان، والزرافات والوحدان. وكلام قوم نوح معه (يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عليه السلام كَانَ قَدْ أَكْثَرَ فِي الْجِدَالِ مَعَهُمْ، وَذَلِكَ الْجِدَالُ مَا كَانَ إِلَّا فِي اثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجِدَالَ فِي تَفْهِيمِ الدَّلَائِلِ وَفِي إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ حِرْفَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَلَى أَنَّ التَّقْلِيدَ وَالْجَهْلَ وَالْإِضْرَارَ عَلَى الْبَاطِلِ حِرْفَةُ الْكُفَّارِ.)^(٦)

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الاستكثار من الخير

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على بلاغ الرسالة وأداء الأمانة وفي سبيل ذلك بشر وأنذر، ورغب ورهب، وأبان لأمته أنه لا يملك لنفسه خيرا ولا شرا، ولا ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، وقد ورد الاستكثار هنا في مقام المدح وهو الاستكثار من الخير، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

(٥) انظر: جامع البيان: (٣٠٣/٥١)، بحر العلوم (٨٤١/٢)، الكشاف: (١٩٣/٢)، تفسير ابن كثير: (٨١٣/٤).

(٦) مفاتيح الغيب: (١٤٣/٧١).

يُؤْمِنُونَ ﴿ الأعراف: (١٨٨). ومعنى لاستكثرت من الخير أي: (لاستكثرت من العمل الصالح).^(٧) أو: (لاستكثرت من النفع وما أصابني الضر).^(٨).

والاستكثار هنا سواء كان في جلب الخير والنفع أو دفع الشر والضرر استكثار ممدوح، والآية تشير إلى أن النبي ﷺ أمر (بتصريح الإقرار بالتبري عن حوله ومنته، وأن قيامه وأمره ونظامه بطول ربه ومنته ولذلك تتجسس على الأحوال، وتختلف الأطوار فمن عسر يمسنى، ومن يسر يخصني، ولو كان الأمر بمرادي، ولم يكن بيد غيري قيادي لتشابهت أحوالي في اليسر، ولتشاقلت أوقاتي في البعد من العسر).^(٩)، فالاستكثار هنا ممدوح والكثرة هنا محمودة كما هو بين.

سؤال موسى ﷺ الله أن يجعل معه أخاه هارون وزيراً كي يعينه على أن يسبحا الله كثيراً ويذكراه كثيراً

الذكر والتسبيح للمؤمن زاد يمضي به في طريقه إلى الله ﷻ، يستعين بهما على المحن، ويتقوى بهما على الزمن، ويسلو بهما في نوازل الدهر ومفاجع الأيام، وهما كذلك هدف يسعى له المؤمن، سيما إذا كان مع المرء أخ صالح، إذا نسي ذكره، وإذا ذكر أعانه، ومن هنا طلب موسى ﷺ من ربه ﷻ أن يجعل معه هارون وزيراً؛ ليسبحا كثيراً، ويذكراه كثيراً. فالكثرة هنا في التسبيح والذكر فهي كثرة محمودة، قال موسى ﷺ: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴾^(٣١) هَارُونَ أَخِي^(٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي^(٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي^(٣٢) كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا^(٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا^(٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا^(٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى^(٣٦) سورة طه: ٢٩/٣٦. والمعنى: (كي نعظمك بالتسبيح لك كثيراً (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) فحمدك (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) يقول: إنك كنت ذا بصر بنا لا يخفى عليك من أفعالنا شيء).^(١٠) وفي طلب موسى ﷺ إشراك أخيه هارون معه في الرسالة، بيان لطلب العون به على بلاغ الرسالة، وفي هذا بيان (أن طلبه مشاركة أخيه له بحق ربه

(٧) جامع البيان: (٢٠٣ / ٣١).

(٨) بحر العلوم: (٣٧٥ / ١).

(٩) لطائف الإشارات: (٤٩٥ / ١).

(١٠) جامع البيان: (١٠٣ / ٨١).

لا يحظّ نفسه حيث قال: «كَيُّ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا».(^{١١})؛ تعليلاً لطلب الرسالة؛ وتبييناً لباعث الرغبة، وفي إطلاق الكثرة شمول للزمان، والمكان، والأحوال، كأنه قال نسبحك ونذكرك في كل وقت وفي كل مكان وعلى كل حال، قَالَ مُجَاهِدٌ: (لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا، حَتَّى يَذْكُرَ اللَّهَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا. وَقَوْلُهُ: {إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} أَي: فِي اصْطِفَائِكَ لَنَا، وَإِعْطَائِكَ إِيَّانَا النُّبُوَّةَ، وَبَعَثْتِكَ لَنَا إِلَى عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ) (^{١٢})

وليس المراد من التسبيح في الخلوات والجلوات فحسب، بل المراد ما يشمل تسبيح الحال وتسبيح المقال فقوله: {كَيُّ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} غايةٌ للأدعية الثلاثة الأخيرة فإن فعل فيها كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثراً لفعل الآخر، ومضاعفاً له بسبب انضمامه إليه مكثراً له في نفسه أيضاً بسبب تقويته وتأنيده إذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة، ودعوة المردة العتاة إلى الحق وذلك مما لا ريب في اختلاف حاله في حالتي التعدد والانفراد؛ فإن كلاً منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله في حال الانفراد وكثيراً في الموضوعين نعتٌ لمصدر محذوف أو زمانٍ محذوف (^{١٣})

وفي طلب موسى وترتيب دعائه من اللطائف الكثير، منها ما يفيد التقديم والتأخير، ومنها ما يفيد التذييل، ومنها أدب الدعاء، ومقدمات الرجاء، وقبل رجائه واستجيب دعاؤه وأعين على كثرة التسبيح والذكر، وكان من نصره ما كان. (ولا شك أن الاجتماع على العبادة والذكر سبب في دوامهما وتكثيرهما... ولذلك ورد الترغيب في الاجتماع على الذكر: والجمع في الصلاة ليقوى الضعيف بالقوي، والكسلان بالنشيط، وقيل: المراد بكثرة التسبيح والذكر ما يكون منها في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة، لأنه هو الذي يختلف في حالتي التعدد والانفراد، فإن كلاً منهما يصدر منه، بتأييد الآخر، من إظهار الحق، ما لا يصدر منه حال الانفراد. والأول أظهر) (^{١٤})

(١١) لطائف الإشارات (٢/ ٤٥٤)

(١٢) تفسير ابن كثير: (٥/ ٣٨٢).

(١٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٣١/٦.

(١٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٣/ ٤٨٣).

ولا شك أن تكاليف الدعوة وأعباء التعامل مع الناس تحتاج إلى حسن صلة بالله قوية؛ تعين على مواصلة الخير، ونشر الفضيلة، وبلاغ الرسالة للناس، ومن أكثر الأمور إعانة على ذلك التسبيح والذكر، وحسن الثناء على الملك الوهاب من بيده مقاليد الأمور، ومفاتيح القلوب، (والأمر الجليل الذي هو مقدم عليه يحتاج إلى التسبيح الكثير، والذكر الكثير، والاتصال الكثير. فموسى عليه السلام يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه ويعينه بوزير من أهله..

كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ولكن ليتخذ ذلك كله مساعدا له ولأخيه على التسبيح الكثير، والذكر الكثير، والتلقي الكثير، من السميع البصير.. «إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا».. تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير..^(١٥) (وَعَلَّلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سُؤَالَهُ تَحْصِيلَ مَا سَأَلَهُ لِنَفْسِهِ وَلِأَخِيهِ، بِأَنْ يُسَبِّحَا اللَّهَ كَثِيرًا وَيَذْكُرَا اللَّهَ كَثِيرًا. وَوَجَّهَهُ ذَلِكَ أَنَّ فِيمَا سَأَلَهُ لِنَفْسِهِ تَسْهِيلًا لِأَدَاءِ الدَّعْوَةِ بِتَوْفُرِ آلَتِهَا وَوُجُودِ الْعَوْنِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ مَطْنَةٌ تَكْثِيرُهَا)^(١٦)

ومن الأسباب التي حملت موسى على دعاء ربه بأن يجعل معه أخاه هارون وزيراً، والتي تعين على أن يسبحاه كثيرا، ويذكره كثيرا: أن في ذلك دلالة للناس على ربحهم، وفيه من إكثار المسبحين والذاكرين ما لا يخفى؛ ولذلك أعقب الله كلامه بقوله: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [سورة طه: ٤٢] كما أن في التعاون على أداء الرسالة من تقليل الاشتغال بأمور الدنيا والمعاش ما يعين على الإفادة من الوقت، ونشر رسالة الخير إلى الكثير من الناس، مما لا يتأتى من الرسول والداعية حين يكون مشغولا بكل أمور الخاصة والعامة، (والذي أُلْجَأَ مُوسَى إِلَى سُؤَالِ ذَلِكَ عِلْمُهُ بِشِدَّةِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ وَمَنْعِهِ الْأُمَّةَ مِنْ مُفَارَقَةِ ضَلَالِهِمْ، فَعَلِمَ أَنَّ فِي دَعْوَتِهِ فِتْنَةً لِلدَّاعِي، فَسَأَلَ الْإِعَانَةَ عَلَى الْخُلَاصِ مِنْ تِلْكَ الْفِتْنَةِ لِيَتَوْفَّرَ لِلتَّسْبِيحِ وَالذِّكْرِ كَثِيرًا).^(١٧)، (فهذه هي العلة في مشاركة هارون لأخيه في مهمته، لا طلباً لراحة نفسه، وإنما لتتضافر جهودهما في طاعة الله، وتسبيحه وذكوره).^(١٨)

(١٥) في ظلال القرآن: (٤ / ٣٣٣٢).

(١٦) التحرير والتنوير: (٦١ / ٣١٢).

(١٧) التحرير والتنوير: (٦١ / ٤١٢).

(١٨) تفسير الشعراوي: (٥١ / ٤٦٢٩).

وذكر الله كثيرا وتسيحه بالعشي والإبكار من المعينات على كل ما طلبه موسى ﷺ، من بلاغ الرسالة، والصبر على أذى المدعويين، والبركة في العمل والوقت، ولذا أرشد الله زكريا ﷺ بعد نعمته التي أنعم بها عليه أن يذكره كثيرا ويسبحه بالعشي والإبكار، فقال له: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ سورة مريم: (٤١).

وذكر الله كثيرا سبب الفلاح في الدنيا والآخرة، في السلم والحرب، وفي الشدة والرخاء، ولذا أوصى الله ﷻ به المؤمنين إذا لقوا فئة مقاتلة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الأنفال: (٤٥).

وأمر الله تعالى به في وقت ابتغاء فضل الله ورزقه، فهو يعين على تذكر فضل الله ﷻ وإنعامه، ورد النعمة إليه، وذكر هذه النعمة وشكره عليه وهذا سبب استمرارها ودوامها وهي سنة ثابتة لله ﷻ في الشكر والشاكرين، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الجمعة: (١٠).

وذكر الله معين على التأسي بالقدوة الصالحة، والمثل الكامل ﷺ وذكر الله كثيرا مجلبة للمغفرة والأجر العظيم، كما أن ذكر الله كثيرا عصمة للناس أن يقولوا ما لا يفعلون، وذكر الله كثيرا من أسباب عصمة الإنسان أن يقول ما لا يفعل.

تفضيل الله - تعالى - لبني آدم على كثير ممن خلق

مَنَّ اللهُ تعالى على بني آدم بمنن كبرى، ومنح عظمى، منها: أنه كرمهم بصور من التكريم، وألوان من الإكرام والإنعام، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا، والكثرة هنا كثرة محمودة إذ قد ذكرها الله ﷻ في مقام المن والإنعام، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ سورة الإسراء: (٧٠).

وهذا التكريم متعدد الأوجه، متنوع الجنبات، مثل: هيمنتهم على من سواهم من الخلق، وتسخير الحياة لهم، وبأن لهم عقولا وتمييزا، أو بالأمر والنهي، أو الكلام والخط والبيان^(١٩)، (ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه، ومن التكريم لقوم توفيق صدق القدم، ولقوم تحقيق علو الهمم)^(٢٠)

(١٩) انظر: جامع البيان: (٥ / ٥١)، و النكت والعيون: (٣ / ٧٥٢).

(٢٠) لطائف الإشارات: (٢ / ١٦٣).

ومن تكريم الله ﷻ للإنسان أن: (كرمه بخلقته على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان! وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة. وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك.. وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلم فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان! وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملائكة الأعلى الباقي في الأرض.. القرآن... «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» .. فضلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل العريض. وبما ركب في فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فذا بين الخلائق في ملك الله... ومن التكريم أن يكون الإنسان قيما على نفسه، محتملا تبعة اتجاهه وعمله. فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانا. حرية الاتجاه وفردية التبعة. وبها استخلف في دار العمل).^(٢١)

تفضيل الله ﷻ داود وسليمان على كثير من عباده المؤمنين

ومن مواطن الكثرة المحمودة ما اعترف به داوود وسليمان عليهما السلام، بأن الله ﷻ قد آتاهما علما وفضلهما على كثير من عباده المؤمنين؛ لأن الكثرة هنا في مقام الامتنان والاعتراف بالفضل لله ﷻ، **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** سورة النمل: (١٥).

فالكثرة هنا كثرة محمودة وليس كل علم بل علم خاص أيدهما الله ﷻ به ومن عليهما بفهمه والإفادة منه، **(وَذَلِكَ عَلَّمُ كَلَامِ الطَّيْرِ وَالذَّوَابِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا حَصَّهُمُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ)**.^(٢٢)، أو هو علم القضاء، والتفضيل بالكتاب والنبوة والملك^(٢٣)، (وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات، فأخبر بأنهما شكرا الله على عظيم ما أنعم به عليهما)^(٢٤)

(٢١) في ظلال القرآن: (٤ / ١٤٢٢).

(٢٢) جامع البيان: (٨١ / ٤٢).

(٢٣) بحر العلوم: (٢ / ٥٧٥).

(٢٤) لطائف الإشارات: (٣ / ٩٢)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣ / ٣٥٣).

عفو الله تعالى عن كثير من أفعال العباد

وتأتي الكثرة المحمودة هنا في مقام العفو، عفو الله الكريم عن الكثير من ذنوب عباده، وتأتي الكثرة في العفو هنا مرتين في سورة واحدة، بيانا لعظيم عفو الله ﷻ وكريم صفحه وغفرانه، وتبين الآيات الكريمة أن كل ما يصيب الإنسان فيما كسبت يدها ويعفو الله عن كثير، فلو شاء ﷻ لأسكن الريح، فتظل الفلك رواكد على ظهر البحر لا تتحرك، ويفقد الخلق أرزاقهم وتتوقف مصالحهم، أو يغرقهم بما كسبوا، ولكن عفو الله أوسع لهم، وأجمل بهم، فالكثرة هنا في مقام العفو فهي كثرة محمودة، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ سورة الشورى: (٣٠)

ضرورة التأكيد أن العفو من الكريم يجري على سنن ثابتة

ومن البين في الآيات الكريمة أن العفو هنا يجري على سنن ثابتة، ومعنى ويعفو عن كثير: {ويعفو عن كثير} أي من الذنوب فلا يعاقب عليه أو عن كثير من الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة، وقال ابن عطاء: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأن ما عفا عنه مولاه أكثر؛ كان قليل النظر في إحسان ربه إليه. وقال محمد بن حامد: العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعته أكثر من جناياته في معاصيه لأن جنایة المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفو ورحمته لهلك في أول خطوة وعن علي رضي الله عنه هذه أرحى آية للمؤمنين في القرآن؛ لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانياً وإذا عفا لا يعود^(٢٥)

والآية هنا تمثل سنة من سنن الله ﷻ في خلقه، وهي عفو عن كثير من أفعال عباده، كما ورد في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول صاحب المنار وهو يعقب على آية آل عمران: (فَالْأَيَّتَانِ وَارِدَتَانِ فِي بَيَانِ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ ﷻ فِي أَحْلاَقِ الْبَشَرِ وَأَعْمَالِهِمْ، وَهِيَ أَنَّ الْمَصَائِبَ الَّتِي تُعْرَضُ لَهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ وَشُؤْنِهِمْ الْاجْتِمَاعِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ آثَارٌ طَبِيعِيَّةٌ لِبَعْضِ أَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مَا لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ عُقُوبَةٌ تُعَدُّ مُصِيبَةً وَهُوَ الْمَعْفُو عَنْهُ، أَي الَّذِي مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ ﷻ بِأَنْ يُعْفَى وَيُحَى أَثَرُهُ مِنَ النَّفْسِ، فَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ وَهُوَ بَعْضُ اللَّمَمِ وَالْهَفْوِ الَّذِي لَا يَتَكَرَّرُ وَلَا يَصِيرُ مَلَكَةً وَعَادَةً. وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ وَالْقَاعِدَةُ فِي بَيَانِ هَذِهِ السُّنَّةِ بِقَوْلِهِ: وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ

(٢٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (٣ / ٦٥٢).

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ﴿ أَيِّ جَمِيعِ مَا كَسَبُوا، فَإِنَّ "مَا" مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُفِيدُ الْعُمُومَ. وَقَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ السُّنَّةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّفْسِيرِ، وَجَرَيْنَا عَلَى أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَجَمِيعُهَا آثَارٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَقَدْ اهْتَدَى إِلَى هَذِهِ السُّنَّةِ بَعْضُ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الْعَصْرِ. (٢٦)

امتنان الله ﷻ على الخلق بنزول الغيث

الماء روح الحياة، وسر النجاة، جعل الله ﷻ منه كل شيء حي، سيما إذا كان غيثاً، ينتظره الناس، وتتوقف عليه الحياة، وقد مَنَّ اللهُ عَلَى الْخَلْقِ بِذَلِكَ، وَأَبَانَ أَنَّهُ يَحْيِي بِهِمَا الْغَيْثَ مِمَّنْ خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا، فَالْكَثْرَةُ هُنَا كَثْرَةُ مَحْمُودَةٍ فَهِيَ فِي مَوَاطِنِ الْاِمْتِنَانِ مِنَ اللَّهِ ﷻ وَتَبْدُو مَلَاحِمَ الْاِطْرَادِ وَالسَّنَنِ هُنَا فِي أَنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ حَيَاةً تَحْيِي مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً سَوِيحًا طَهُورًا ﴾ ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِ لِيُذَكِّرُوا فَابْتَغُوا الْغَايَةَ ﴾ ﴿ كَثْرَةُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ﴿ سورة الفرقان: ٤٨/٥٠. (وكذا سنَّته مع عباده يرددهم بين إفناء وإبقاء). (٢٧)

امتنان الله بالمطر الذي يكون سببا في إنشاء الجنات والفواكه

وفي موطن آخر يمتن الله ﷻ على عباده بالمطر الذي يكون سببا في إنشاء الجنات والفواكه الكثيرة فيقول: ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ سورة المؤمنون: ١٩.

وفي سياق امتنان الله ﷻ على عباده بالمطر الذي يحيي به أنعاما وأناسي كثيرا، منة أخرى منه ﷻ، بأن جعل من هذا الغيث جنات من نخيل وأعناب، لهم فيها فواكه كثيرة، ومنها يأكلون، والكثرة المحمودة هنا تبدو في مَنَّ اللهُ عَلَى الْخَلْقِ بِذَلِكَ، وَأَبَانَ أَنَّهُ يَحْيِي بِهِمَا الْغَيْثَ مِمَّنْ خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا، فَالْكَثْرَةُ هُنَا كَثْرَةُ مَحْمُودَةٍ فَهِيَ فِي مَوَاطِنِ الْاِمْتِنَانِ مِنَ اللَّهِ ﷻ وَتَبْدُو مَلَاحِمَ الْاِطْرَادِ وَالسَّنَنِ هُنَا فِي أَنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ حَيَاةً تَحْيِي مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً سَوِيحًا طَهُورًا ﴾ ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِ لِيُذَكِّرُوا فَابْتَغُوا الْغَايَةَ ﴾ ﴿ كَثْرَةُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ﴿ سورة الفرقان: ٤٨/٥٠. (وكذا سنَّته مع عباده يرددهم بين إفناء وإبقاء). (٢٧)

(٢٦) تفسير المنار: (٤ / ٨٥١).

(٢٧) لطائف الإشارات: (٢ / ٩٣٦).

اللَّيْلَ التَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ وَعَيْرٌ صُنُوفٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ سورة الرعد: ٣، ٤.

امتنان الله ﷻ على عباده بالأنعام ومنافعها الكثيرة

من المواطن التي ذكرت فيها الكثرة في القرآن الكريم تلك الآية الكريمة التي يمتن الله ﷻ فيها على عباده بنعمة الأنعام التي يسقيهم الله ﷻ مما في بطونها، ولهم فيها منافع كثيرة، ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ سورة المؤمنون: (٢١). والسنية هنا واضحة من خلال المنافع التي يصيبها العباد من الأنعام والتي تزيدها التقنية والعلم الحديث تأكيدا لإعجاز القرآن الكريم وقضاياه.

ولعلنا نشير هنا إلى دقة تعبير القرآن الكريم: (مما في بطونها)، فهل في بطون الأنعام غير ما هو مألوف للناس معروف للعامة، مما يصلح غذاء أو دواء مما عبر عنه القرآن بأنه (منافع)؟، اللهم إنا بك مؤمنون، ولنعمك حامدون شاكرون، وعن شكر صنيعك عاجزون، فاحمد اللهم عنا نفسك لنفسك؛ كما ينبغي لجلال وجهك وكمال قدسك، فإننا عن القيام بحق حمدك عاجزون، ولعظمة جبروتك خاضعون، وإليك فيما منحت أهل قربك راغبون، فجد علينا من خزائن جودك بما تعلقت به الآمال، فإنك واسع العطاء جزيل النوال.

مضاعفة الله ﷻ للقرض أضعافا كثيرة

كما وردت الكثرة في موضع وصف المضاعفة للقرض في قوله ﷻ: ﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ سورة البقرة: (٢٤٥). والمضاعفة هنا محمودة لأنها جزء من الله ﷻ على البذل والعطاء، فالكثرة كثرة محمودة.

عند الله مغانم كثيرة

كما وردت الكثرة المحمودة في حض الله ﷻ المؤمنين المحاربين على عدم التسرع في وصف من ألقى إليهم السلام بأنه ليس مؤمنا رغبة في عرض الدنيا فما عند الله أكثر وأبقى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبَتُّعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ سورة النساء: (٩٤).

ضرب الله ﷻ الأمثال للناس يهتدي بها كثير ويضل بها كثير

مضت سنة الله ﷻ في خلقه أن يقيم عليهم الحجة، ويعلمهم البينة؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ومن ذلك أن ضرب لهم في كتابه الأمثال يضل بها كثيرا ويهدي بها كثيرا، قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ سورة البقرة: (٢٦).

وقد يتساءل سائل كيف يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا، فالمتوقع أن يكون بعض الفريقين كثيرا والآخر قليلا، وبالنظر يظهر أن هذا فيه بيان قيمة المهتمدين وإن كانوا في أعين الناس قلة، فهم في الواقع ونفس الأمر كثرة، (فَلَا تَنَافَى بَيْنَهُمَا لِأَنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقِلَّةَ أَمْرَانِ نَسْبِيَّانِ، فَالْمُهْتَدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ كَثِيرٌ، وَإِذَا وُصِفُوا بِالْقِلَّةِ فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الضَّلَالِ، أَوْ تَكُونُ الْكَثْرَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْقِلَّةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَشْخَاصِ، فَسُمُّوا كَثِيرًا ذَهَابًا إِلَى الْحَقِيقَةِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلُّوا وَإِنْ كَثُرُوا (٢٨)

(٢٨) البحر المحيط في التفسير: (١/ ٢٠٢)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (١/ ٨١١).

المبحث الثالث

الكثرة المذمومة صفاتها وخصائصها في القرآن الكريم

وإذا تتبعنا الكثرة المذمومة في القرآن الكريم، وجدناها تدور حول بعض المعاني التي يمكن أن نردها إلى أصول جامعة على النحو التالي:

- وصف أكثر الناس
- وصف أكثر أهل الكتاب
- وصف الكثرة لمفردات من الأشياء

وصف أكثر الناس

خلق الله ﷻ الخلق وهو بهم أعلم، وبطبائعهم أخبر، وبخلجات صدورهم أبصر، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ سورة الملك: ١٤، ووصفهم الله ﷻ وصفا لا يستطيعه غيره، ولا يقدر على القطع به سواه؛ لأنه الأعلم بطوايا النفوس، وخبايا الصدور، وخفايا السرائر، ووردت آيات القرآن الكريم تؤكد هذا الوصف في مواطن متعددة، ذلك الوصف الذي يؤكد الواقع، وتدعمه تجارب الحياة، ويمكن أن نتابع وصف القرآن للكثرة من الناس من خلال هذه الصفات:

كثير من الناس عن آيات الله غافلون

بث الله ﷻ في الخلق آيات وعبراً، وفي الكون عظات ومثلاً، والسعيد من اعتبر والشقي من تعداها ولم يدكر، وقد مضى حكم الله ﷻ وسنته في خلقه بأن كثيراً منهم عن آيات الله غافلون، قال ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ سورة يونس: (٩٢). وقد وردت هذه الآية الكريمة في بيان هلاك فرعون الذي ذكر بوصفه دون اسمه، حتى يمضي وصفه على كل (فرعون) ما بقيت الحياة، وتلك بعض ملامح السننية في القرآن الكريم، فهي لا تحدد الاسم، ولا الزمان، ولا المكان؛ حتى يفيد الناس من الوصف، ولا يتوقفوا عند الاسم والرسم، ولكن أكثر الناس غافلون عن هذه العبر، وتلك الفوائد التي تبقى ما بقي الإنسان، وتتعاقب ما تعاقب الليل والنهار، ومعنى (غافلون) أي: (ساهون،

لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.)^(٢٩) أو (مُعْرَضُونَ عَنْ تَأْمُلِ آيَاتِنَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا)^(٣٠)، (وقرى: لمن خلقك، بالقاف: أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته. ويجوز أن يراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك وتميزك من بين المغرقين- لئلا يشتهه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا- لادعائك العظمة: إن مثله لا يغرق ولا يموت- آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة في أمرك.)^(٣١)، (وقرأ أبي بن كعب «نحْيِك» بالحاء المشددة من التنحية، وهي قراءة محمد بن السميع اليماني ويزيد البريدي)^(٣٢)

وكثرة التأكيدات الواردة في الآية الكريمة من: إن، واسمية الجملة، واللام يظهر مدى غفلة الناس عن العبرة، على الرغم من ظهورها، وفيه (تَعْرِيزٌ بِهِمْ وَأَكْدَهُ هَذَا التَّأْكِيدَ لِمَا تَقْتَضِيهِ شِدَّةُ الْعُقْلَةِ مِنْ قُوَّةِ التَّنْبِيهِ، أَيْ إِنَّهُمْ لَشَدِيدُو الْعُقْلَةِ عَنْهَا عَلَى شِدَّةِ ظُهُورِهَا فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي أَسْبَابِهَا وَتَنَائِجِهَا وَحَكْمِ اللَّهِ فِيهَا، وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَإِنَّمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهَا مُعْرِضِينَ كَمَا يَمُرُّونَ عَلَى مَسَارِحِ الْأَنْعَامِ، وَفِيهِ دَمٌ لِلْغَفْلَةِ، وَعَدَمٌ لِلتَّفَكُّرِ فِي أَسْبَابِ الْحَوَادِثِ وَعَوَاقِبِهَا وَاسْتِبَانَةِ سُنَنِ اللَّهِ فِيهَا، لِلْإِعْتِبَارِ وَالْإِتِعَاطِ بِهَا.)^(٣٣)

أكثر الناس لا يشكرون

نعم الإله على العباد كثيرة، ومننه على خلقه لا تحد ولا تعد ومع ذلك أكثرهم لا يشكرون، مضت بذلك سنة الله ﷻ، فالله ذو فضل على الناس، ولكن أكثرهم لا يشكرون، وقد بذل إبليس في ذلك واجتهد أن يكون أكثر الناس لا يشكرون، ووردت الآيات القرآنية الكريمة دالة على ذلك، وأيده واقع الناس وحياتهم، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ سورة البقرة: ٢٤٣، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) أي: لا يقومون بحقوق هذه النعمة، ولا يستفيدون من بيان هذه السنة؛ أي هذا شأن أكثر الناس في غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون، بل اعتبروا بما نزل عليكم وتأدّبوا به لتستفيدوا من كلِّ حوادث الكون، حتى مما ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تفریط

(٢٩) جامع البيان: (٥١ / ٨٩١).

(٣٠) تفسير القرطبي: (٨ / ١٨٣).

(٣١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢ / ٩٦٣).

(٣٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٣ / ٢٤١).

(٣٣) تفسير المنار: (١١ / ٩٣).

في بَعْضِ الشُّعُونِ^(٣٤)، واطراد السنة هنا واضح من تأكيد القرآن الكريم وتعبيره، وواقع الناس يؤكد ذلك واطراده.

أكثر الناس لا يعلمون

ومن وصف القرآن الكريم لأكثر الناس : أنهم لا يعلمون، ورد ذلك في آيات متعددة، وقد ورد نفي العلم عن أكثر الناس في مقامات متعددة، ومواطن شتى، ومن خلال تتبع الآيات الكريمة ندرك الآتي:

نفي العلم - عن أكثر الناس - أن الدين هو: البراءة من عبادة ما سوى الله تعالى، وإخلاص التوحيد له عز وجل هو الدين القيم، قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيَتْمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، سورة يوسف: (٤٠)

والمعنى: (ولكن أهل الشرك بالله يجهلون أن الدين القيم هو البراءة مما سوى الله ﷻ فلا يعلمون حقيقته).^(٣٥)

وورد نفي العلم عن أكثر الناس في بيان مقام العلم بأولياء الله تعالى، في قوله: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْشَوْنَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُوِ الْعِلْمِ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال ابن عباس: (لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه).^(٣٦)

وورد نفي العلم عنهم في مقام بيان معرفتهم بأن وعد الله حق، قال ﷻ: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: (ولكن أكثر قريش لا يعلمون وعد الله عباده، أنه باعثهم يوم القيامة بعد مماتهم أحياء).^(٣٧)

ونفي علمهم بمعرفة البعث فقال ﷻ: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)، أي: أَلَمْ يَبْعَثُوا مَبْعُوثُونَ.^(٣٨)

(٣٤) تفسير المنار: (٢ / ٤٦٣).

(٣٥) جامع البيان: (٦١ / ٦٠١).

(٣٦) تفسير البغوي: (٢ / ٣٠٥).

(٣٧) جامع البيان: (٧١ / ٣٠٢).

(٣٨) تفسير القرطبي: (٠١ / ٥٠١).

ونفى الله ﷺ عدم علم أكثر الناس بأن الله قادر على أن ينزل آية، ولا يعلمون ما يترتب على نزول الآية ورفضهم لها من وجوب حلول العذاب كما مضت بذلك سنة الله ﷺ في خلقه، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، (ولكن أكثرهم لا يعلمون بأن الله قادر على أن ينزلها. ويقال: لا يعلمون بما في نزول الآية لأنه لو نزلت الآية عليهم ولم يؤمنوا؛ استوجبوا العذاب.) (٣٩)

وهؤلاء الطالبون لآية من الله ﷺ لا يعلمون أن الآيات تجري على سنن ثابتة وقوانين لله ﷺ في عباده، فلا تنزل تلبية لطلب المدعوين، وإلا لو نزلت وكذبوا بها لكان في ذلك هلاكهم؛ لكثرة تكذيبهم، ولخالفت تلك الآية سنة الله ﷺ في استئصال المكذبين، ورسالة النبي ﷺ في الأمة عامة لا يرد عليها سنة الاستئصال فيكون في ذلك تعارض لسنن الله ﷺ وهذا لا يكون، فهم قالوا: (هَلَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ - أَيِ الرَّسُولِ - آيَةً مِنْ رَبِّهِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِسُنَنِهِ ﷺ فِي خَلْقِهِ، مِمَّا اقْتَرَحْنَا عَلَيْهِ، وَجَعَلْنَاهُ شَرْطًا لِإِيْمَانِنَا بِهِ؟ وَقِيلَ: إِنَّ مُرَادَهُمْ آيَةٌ مُلْجِئَةٌ إِلَى الْإِيْمَانِ، وَالْإِلْجَاءِ اضْطِرَارًا لَا اخْتِيَارًا، فَلَا يُوجِبُهُ إِلَيْهِ الطَّلَبُ وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ إِنْ حَصَلَ (قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أَي: قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى تَنْزِيلِ آيَةٍ مِمَّا اقْتَرَحُوا، وَإِنَّمَا يُنَزِّلُهَا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَنْزِيلَهَا، لَا إِذَا تَعَلَّقَتْ شَهْوَتُهُمْ بِتَعْجِيزِ الرَّسُولِ بِطَلَبِهَا، فَإِنَّ إِجَابَةَ الْمُعَانِدِينَ إِلَى الْآيَاتِ الْمُفْتَرَحَةِ لَمْ يَكُنْ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ سَبَبًا لِلْهُدَايَةِ، وَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ ﷺ فِي الْأَقْوَامِ، بِأَنْ يُعَاقَبَ الْمُعْجِزِينَ لِلرُّسُلِ بِذَلِكَ بِعَذَابِ الْإِسْتِئْصَالِ.) (٤٠)

كما أنهم لا يقدرّون المعجزة الكبرى وهي القرآن الكريم وحصرّوا أنفسهم في المعجزات الحسية التي تنتهي بانتهاء زمانها، ولم يدروا أن القرآن تجاوز الزمان والمكان، وحاجات البشر، ففيه لكل زمان ما يعجز أهله ويرشدهم إلى صدق قائله.

ومما نفى الله تعالى علم أكثر الناس به: علمهم بأن العطاء والمنع من الله، قال ﷺ: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَآئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة الأعراف: (١٣١).

فهم لا يعلمون أن العطاء والمنع من الله، وأن تطيرهم غير مبني على وعي ولا بصيرة؛ لأن مقاليد الأمور كلها بيد الملك، لكنهم لا يرون ذلك ولا يلحظون أنه فضل الله يؤتيه من يشاء، فالشكور يرد النعمة إلى مصدرها، ويسند الفضل إلى صاحب الفضل.

(٣٩) بحر العلوم: (١/ ٦٤٤)، النكت والعيون: (٢/ ١١٠).

(٤٠) تفسير المنار: (٧/ ٣٢٣).

نفي علم أكثر الناس بأن وعد الله حق، وأن كل ما في السماوات والأرض لله. ورد ذلك في قوله ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: (أن كل ما في السماوات وكل ما في الأرض من شيء، لله ملك، لا شيء فيه لأحدٍ سواه).^(٤١) فالوجود كله في يديه، والخير كله منه وإليه.

نفي علم أكثر الناس بما يصلح للناس

ونفى الله ﷻ علم أكثر الناس بما فيه مصلحة الأنام، وأن النسخ والإحكام من لدن علام الغيوب، وأنتك يا رسول الله لا تأتيهم بشيء من عند نفسك بل (الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، وهم لا يعلمون حقيقة صحته)^(٤٢)، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة النحل: (١٠١). (فيه وجهان: أحدهما: لا يعلمون جواز النسخ. الثاني: لا يعلمون سبب ورود النسخ)^(٤٣)

نفي علم أكثر الناس بالحق

كما نفى الله ﷻ علم أكثر الناس بالحق، ومعرفتهم به، فلا يدرون ما يأخذون وما يدعون، فقال ﷻ: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. والمعنى: (بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الصواب فيما يقولون ولا فيما يأتون ويدرون، فهم معرضون عن الحق جهلاً منهم به، وقلة فهم)^(٤٤)، أو (لا يصدقون بالقرآن، ويقال بالتوحيد)^(٤٥)

أكثر الناس لا يعلمون قدر عظمة الله

الناظر في ملك الله ﷻ يبهره هذا العلم المحكم وهذا الترتيب الدقيق الذي يشمل كل شيء من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، ومن علم الإنسان إلى علم الحيوان والنبات والحشرات، فكل بحسبان، وكل يدل على عظمة خالقه، والناس في غفلاتهم عن هذا الإدراك سادرون، وفي غيهم يعمهون، ولقد ضرب الله ﷻ مثلاً لافتاً لأنظار الناس واضحاً بيناً لا يحتاج إلى عمق في العلم، ولا مهارة دقيقة في الإدراك بل يراه العامي والعالم، وكل يفهمه حسب معطياته وقدراته:

(٤١) جامع البيان: (٣٠١ / ٥١).

(٤٢) جامع البيان: (٧١ / ٧٩٢).

(٤٣) النكت والعيون: (٣ / ٤١٢).

(٤٤) جامع البيان: (٨١ / ٧٢٤).

(٤٥) بحر العلوم: (٢ / ٤٢٤).

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة النمل: (٦١). ولكن أكثر الناس لا يعلمون لأنهم لا يقفون ولا يفكرون في دلائل قدرة الله ﷻ، فهم (لا يعلمون قدر عظمة الله، وما عليهم من الضرّ في إشراكهم في عبادة الله غيره، وما لهم من النفع في إفرادهم الله بالألوهية، وإخلاصهم له العبادة، وبراءتهم من كلّ معبود سواه).^(٤٦)

نفي الله ﷻ علم أكثر الناس بأن وعد الله حق

قال ﷻ: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة القصص: (١٣)، أي: (ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن وعد الله حق، لا يصدقون بأن ذلك كذلك).^(٤٧)، أو: (ولكن أكثرهم لا يعلمون، أن الله وعدّها ردّه إِلَيْهَا).^(٤٨)

نفي الله ﷻ عن أكثر الناس علمهم بأن الله هو الذي رزقهم وأمنهم وجبى إليهم ثمرات كل شيء.

كثيرا ما يصد الناس عن الإيمان، ويردهم عن الطاعة خوفهم على مصلحة حاضرة يخشون فواتها، أو طمعهم في منفعة منتظرة يرجون نوالها، انطبق ذلك على قريش مع الرسول ﷺ كما انطبق على كل الأمم السابقة بما يؤكد السننية في تلك القضية المطردة، ولقد أبطل الله ﷻ حججهم ودحض مزاعمهم بصورة واقعية راقية يفهمها كل ذي عينين، ويعقلها كل ذي عقل، قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة القصص: (٥٧). أي: (لا يعلمون أننا نحن الذين مكنا لهم حرمًا آمنا، ورزقناهم فيه، وجعلنا الثمرات من كلّ أرضٍ تجبى إليهم، فهم بجهلهم بمنّ فعل ذلك بهم يكفرون، لا يشكرون من أنعم عليهم بذلك).^(٤٩)

ولقد قال الله ﷻ ذلك لقريش ردا على تخوفهم من الإيمان وأنهم يخشون إن هم اتبعوا الهدى أن يتخطفوا من أرضهم، فذكرهم الله ﷻ بأنه هو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من

(٤٦) جامع البيان: (٩١/ ٤٨٤).

(٤٧) جامع البيان: (٩١/ ٥٣٥).

(٤٨) بحر العلوم: (٢/ ١٠٦).

(٤٩) جامع البيان: (٨١/ ٩٨٢).

خوف وجبى إليهم ثمرات كل شيء، والمتأمل في الآية الكريمة يدرك أن المراد بالثمرات هنا ليست ثمرات الفاكهة بل (ثمرات كل شيء)، أي: خلاصة كل شيء، وأفضل ما فيه سواء كان ذلك في الطعام أو الشراب، أو الثياب، أو العقول البشرية، أو الخبرات الإنسانية، أو غيرها من ثمرة كل شيء، والأيام تزيد هذه النبوءة القرآنية تأكيداً، فما زلنا نرى ثمرات كل شيء تجبى إلى هذه البلاد المباركة، قديماً وحديثاً، ومع ذلك (هم غافلون عن الاستدلال، وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم).^(٥٠)

نفي علم أكثر الناس بأن للذين ظلموا عذاباً غير عذاب الدنيا

ونفى الله ﷻ عن أكثر الناس علمهم بأن للظالمين عذاباً غير عذابهم في الدنيا، وأنه نازل بهم ما لم يتوبوا لا محالة، قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. والمعنى: أكثرهم لا يعلمون (أَنَّهُمْ ذَاتُهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابِ)^(٥١) أو: (أَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ لِدِينِهِ).^(٥٢)، أو (أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ).^(٥٣)

نفي علم أكثر الناس بالمتقين حقاً

ونفى الله ﷻ عن أكثر الناس بأن أولياء الله هم المتقون حقاً، قال ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا أُولِيَاءُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأنفال: (٣٤). (ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن أولياء الله المتقون، بل يحسبون أنهم أولياء الله).^(٥٤)

نفي علم أكثر الناس أن الله وحده هو الحقيق بالحمد

الله ﷻ وحده هو الحقيق بالحمد والثناء، والجدير بالشكر والدعاء، لفضله وإنعامه، وبره وإكرامه، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك، قال ﷻ: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الزمر: (٢٩). (إنما الحمد الكامل هو لله خالصاً؛ لأنه هو المنعم والمخالق، والرازق ولكن أكثر

(٥٠) تفسير القرطبي: (٣١/٠٠٣).

(٥١) جامع البيان: (١٢/٥٠٦).

(٥٢) لطائف الإشارات: (٣/٨٧٤).

(٥٣) تفسير الثعلبي: ٣٣١/٩.

(٥٤) جامع البيان: (٣١/٠٢٥).

هؤلاء الكفرة لا يعلمون أنها كذلك.)^(٥٥) ف (الثناء له، وهو مستحق لصفات الجلال.)^(٥٦)

أكثر الناس لا يعلمون مدار العطاء والمنع

يعطي الله ﷻ ويمنع، ويهب وينزع لحكم يعلمها، وأسرارٍ يري بها عباده، منها الابتلاء والاختبار، وإقامة سورة الحجة على عباده، قال ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّثْلًا قَالِ إِنَّمَا أُوتِينَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الزمر: (٤٩). والمعنى: (عطينا إياهم تلك النعمة من بعد الضر الذي كانوا فيه فتنة لهم، يعني بلاء ابتليناهم به، واختبارا اختبرناهم به (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ) لجهلهم، وسوء رأيهم (لا يَعْلَمُونَ) لأي سبب أعطوا ذلك.)^(٥٧)، أو لا يعلمون (البلوى من النعمى).^(٥٨) ولا يعلمون (أَنَّ هَذَا التَّحْوِيلَ إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ الْإِخْتِبَارِ).^(٥٩)

أكثر الناس لا يعلمون سنن الله الماضية

أكثر الناس لا يعلمون حكم الله ﷻ في خلقه، وسننه الماضية في عباده، وأن ما تصير إليه الأمور تجري بحسبان وقدر معلوم، لخالق الأرض والسماء، وأن الكون مسطوره ومنظوره يجري (بحسبان) وأنه ﷻ لذلك وضع (الميزان) وخلقه جميعا (كل في فلك يسبحون)، وما يجري في عالم الحياة يجري في عالم الأحياء، قال ﷻ في شأن يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة يوسف: (٢١). أي: (لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطّفه لما يريد)^(٦٠)، (أن الأمر كله بيد الله.)^(٦١) أو: (لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون.)^(٦٢)، وقد مضت سنة الله تعالى التي أَرادها في يوسف؛ لأن أمره غالب، وحكمه نافذ ولا يقع في ملكه إلا ما يريد.

(٥٥) الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (٢٣ / ٦).

(٥٦) لطائف الإشارات: (٠٨٢ / ٣).

(٥٧) جامع البيان: (٤٠٣ / ١٢).

(٥٨) النكت والعيون: (١٣١ / ٥).

(٥٩) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (٨٥٤ / ٦٢).

(٦٠) تفسير ابن كثير: (٨٧٣ / ٤).

(٦١) اللباب في علوم الكتاب: (٣٥ / ١١).

(٦٢) في ظلال القرآن: (٩٧٩١ / ٤).

أكثر الناس لا يعلمون أن خلق السماوات أكبر من خلق الناس

الناظر في ظاهر الأمر يظن أن كثيرا من الناس على وعي وعلم، وواقع الأمر يثبت أن أكثرهم لا يعلمون، وعلمهم الظاهر علم ظني، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة غافر: (٥٧).

أكثر الناس يجهلون

ومن مواطن الكثرة التي ذكرها القرآن في مقام الذم ذكره أن أكثر الناس يجهلون، وهذه تتممة لحكم القرآن في عموم الناس أنهم لا يؤمنون، قال ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ سورة الأنعام: (١١١). يقول: (ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفر بأيديهم، متى شاءوا آمنوا، ومتى شاءوا كفروا. وليس ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشيد فأضلته.) (٦٣)

أو أن جهلهم هنا إما أن يكون المراد به جهلهم فيما يقترحونه من الآيات، أو أنهم لو أجيبوا إلى اقتراحهم لما تمكنوا من الإيمان طوعا، والقرآن لا يجبر الناس على الإيمان به، أو لو أجيبوا ولم يؤمنوا لحق عليهم العذاب. وذلك (لأن الآيات وإن تواترت، وشموس البرهان وإن تعالت فمن قصمته العزة وكبسته القسمة لم يزد ذلك إلا حيرة وضلالا، ولم يستنجز إلا للشقوة حالا.) (٦٤)

أكثر الناس لا يعقلون

ومضى القرآن الكريم يؤكد طبع الأكثرية بأنهم لا يعلمون، وأكثرهم يجهلون، وأنهم لا يعقلون فقال ﷺ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، (بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون ما لهم فيه النفع من أمر دينهم، وما فيه الضرر، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله، ينالون بها عند الله زلفة وقربة، ولا يعلمون أنهم بذلك هالكون، مستوجبون الخلود في النار.) (٦٥)

(٦٣) جامع البيان: (٧٤ / ٢١).

(٦٤) لطائف الإشارات: (١ / ٥٩٤).

(٦٥) جامع البيان: (٩٥ / ٠٢).

أكثر الناس لا يؤمنون

وجرت سنة الله ﷻ في الناس بأن الكثرة منهم لا تؤمن، ولا تستجيب، قال ﷻ: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة يوسف: (١٠٣). وسواء أكان المراد بالناس هنا أهل مكة، أم الناس على عمومهم وحقيقتهم، فإن السنة هنا ماضية لا تتخلف ولا تتأجل، أي: (وما أكثر مشركي قومك، يا محمد، ولو حرصت على أن يؤمنوا بك فيصدقوك، ويتبعوا ما جنتهم به من عند ربك، بمصدقيك ولا متبئيك).^(٦٦)

والله عز وجل هنا (أخبر عن سابق علمه بهم، وصادق حكمه وحكمته فيهم. ويقال معناه: أقمتمك شاهدا لإرادة إيمانهم، وشدة الحرص على تحققهم بالدين، وإيقانهم. ثم إنني أعلم أنهم لا يؤمن أكثرهم، وأخبرتكم بذلك، وفرض عليك تصديقي بذلك، وفرضت عليك إرادتي كون ما علمت أنه لا يكون من إيمانهم).^(٦٧)

كما أبان القرآن الكريم عن سنة الله في عدم إيمان أكثر الناس على الرغم من علمهم بالحق ورؤيتهم له، قال تعالى: ﴿ المر تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الرعد: (١). (وفي المراد ب { أكثر الناس } قولان: أحدهما: أكثر اليهود والنصارى ، لأن أكثرهم لم يسلم. الثاني: أكثر الناس في زمان رسول الله ﷺ).^(٦٨) وسواء أكان المراد من أكثر الناس هنا اليهود والنصارى أم الناس في زمان الرسول ﷺ ، فالسنة بهذا ماضية، أي: (ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به، فهم الأكثرون عددا، والأقلون قدرا وخطرا).^(٦٩)

أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون

وتعدد حديث القرآن عن وصف طبيعة أكثر الناس، وأنهم كافرون أو مشركون أو لا يؤمن أكثرهم إلا وهم مشركون بالله ﷻ، وتنوع حديث القرآن في التعبير عن هذه الكثرة كما تنوع الحديث عنها في الزمان فشملت السور المكية والمدنية على السواء، قال ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ سورة يوسف: (١٠٦). وقال ﷻ: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ سورة النحل: (٨٢). سورة النحل: ٨٢، ٨٣.

(٦٦) جامع البيان: (٤٨٢ / ٦١).

(٦٧) لطائف الإشارات: (١١٢ / ٢).

(٦٨) النكت والعيون: (١٩ / ٣).

(٦٩) لطائف الإشارات: (٥١٢ / ٢).

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة الشعراء: (٨). وقال ﷺ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ سورة الروم: ٤٢. وفي هذه الآية الكريمة أمر من الله ﷺ لرسوله ﷺ والمؤمنين أن يسيروا في الأرض حتى يروا واقع هذه السنة التي لا تتخلف وهي أن أكثر الناس قبلهم كانوا مشركين.

أكثر الناس للحق كارهون

وأكد القرآن الكريم، أن أكثر الناس للحق كارهون، قال ﷺ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَثُرُونَ﴾ ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ﴿سورة الزخرف: ٧٦-٧٨﴾ (ولكن أكثرهم لما جاء به محمد ﷺ من الحق كارهون). (٧٠)

كما نفى القرآن الكريم كون رفضهم للحق مبنياً على أن بالرسول جنة؛ بل لأنهم هم الذين كرهوا الحق وأعرضوا عنه، وتنكبوا صراطه المستقيم، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ﴿سورة المؤمنون: (٧٠).

وبين القرآن الكريم علة رفضهم الحق، وكرههم له؛ بأنه: (يخالف شهواتهم وأهوائهم فلذلك أنكروه، وإنما قيد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان استنكافاً من توبيخ قومه، أو لقلّة فطنته وعدم فكرته لا كراهة للحق). (٧١)، والحق لا يتبع الأهواء بل يفرض نفسه ويتبعه الناس لأنه الحق، وإلا لو اتبع هوى كل هاو لما قرت الحياة، ولو كان هذا الحق يمشي على رغبات الناس وجاء (موافقاً لأهوائهم الباطلة لفسد نظام العالم، وتخصيص العقلاء بالذكر حيث عبّر بمن لأنّ غيرهم تبع). (٧٢)

كثير من الناس بقاء ربهم كافرون

وتتم الآيات اطراد سنة الله ﷺ في الأكثرية، فهم لا يؤمنون ، وهم للحق كارهون، وهم بقاء ربهم كافرون، فيقول ﷺ: ﴿وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ ، أي: (وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم كافرون؛ جاهلاً منهم بأن معادهم إلى الله

(٧٠) جامع البيان: (١٢ / ٦٤٦).

(٧١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٤ / ٢٩).

(٧٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٣ / ١٨٥).

بعد فنائهم، وغفلة منهم عن الآخرة.)^(٧٣) (أي: جاحدون، ولقاء ربهم هو البعث يوم القيامة.)^(٧٤) ذلك أنهم لم ينظروا في الآيات والعبر، نظر المتبصر، راغب الإيمان، بل حجبتهم أهواؤهم ومنعتهم شهواتهم وشبهاتهم، (إن من نظر حق النظر، ووضع النظر موضعه أثمر له العلم واجبا، فإذا استبصر بنور اليقين أحكام الغائبات، وعلم موعوده الصادق في المستأنف- نجا عن كد التردد والتجوز. فسبيل من صحا عقله ألا ينجح إلى التقصير فيما به كمال سكونه.)^(٧٥)

وختام الآية بتلك الجملة (تذييلٌ مقررٌ لما قبله بيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والإعراض عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السموات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بقاء حسابه ﷺ وجزائه بالبعث)^(٧٦)

كثير من الناس يضلون بأهوائهم بغير علم

ينعى الله ﷻ على من يتنكب طريقه، وينكص على عقبيه، بعد أن تبين له الحق، ويتبع أهواء الذين يضلون بغير علم، ويؤكد أن كثيرا من الناس يضلون بأهوائهم بغير علم؛ اتباعاً لأهوائهم، ونكوصاً عن طريق الحق، قال ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ سورة الأنعام: (١١٩). والمعنى أن هؤلاء الذين يفتنون لأتباعهم ويحرمون عليهم ويحلون لهم لا برهان لديهم على ما يقولون، فهم (يضلون أتباعهم بأهوائهم من غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوباً منهم لأهوائهم، واتباعاً منهم لدواعي نفوسهم، اعتداءً وخلافاً لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين)^(٧٧)، (ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم، ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبید)^(٧٨)، وهذه السنة هي ما عبر عنها القرآن الكريم في موطن آخر بقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ سورة الأنعام: (١١٦).

(٧٣) جامع البيان: (٧٧ / ٠٢).

(٧٤) تفسير السمعي: (٨٩١ / ٤).

(٧٥) لطائف الإشارات: (٩٠١ / ٣).

(٧٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (٢٥ / ٧).

(٧٧) جامع البيان: (١٧ / ٢١).

(٧٨) في ظلال القرآن: (٧٩١١ / ٣).

كثير من الخلقاء يبغى بعضهم على بعض

حكم القرآن الكريم بأن كثيرا من الخلقاء يبغى بعضهم على بعض، ولم يستثن من هذا الحكم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصف هذا الاستثناء بأنه قليل، فقال ﷺ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ سورة ص: (٢٤). والمعنى: (وإن كثيرا من الشركاء ليتعدى بعضهم على بعض (إلا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يقول: وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، ولم يتجاوزوه)^(٧٩). واختيار القرآن الكريم للخلقاء مع أن البغي والظلم جبلة لا يتخلى عنها إلا من وفقه الله ﷻ، كما قال أبو الطيب:

والظلم في خَلْقِ النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يَظلم^(٨٠)

لأن المخالطة مظنة كثرة المنازعة، وهم إذا اختلطوا (اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل ما يملكه من الأشياء النفسية إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيُنْضِي ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة ولهذا خص داود ﷺ الخلقاء بزيادة البغي والعدوان ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لا تكون لأجل الدين.)^(٨١)

• مفردات تتعلق بكثير من الناس

الحياة الدنيا وتكاثر الناس في الأموال والأولاد

الدنيا قنطرة الآخرة، ومعبر الآجلة، وهي دار ابتلاء واختبار، وهي سوق لما بعدها يربح فيه من يربح، ويخسر فيه من يخسر، وكثير من الناس تغيب عنه مهمتها فيتكاثر فيها في الأموال والأولاد، فحذر الله ﷻ المؤمنين منها، وأمرهم أن يجعلوها معبرا لما بعده، قال ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَتُهُ وَتَفَاخُرُ بَيْنِكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ سورة الواقعة: ٢٠.

ومن بيان القرآن الكريم لسنته في الكثرة حديثه عن تكاثر الناس في الدنيا وهوهم بهذا التكاثر حتى وقفوا على جليلة الأمر وحقيقة الحق عندما رجعوا إلى عقولهم وزاروا المقابر،

(٧٩) جامع البيان: (١٢ / ٠٨١).

(٨٠) انظر ديوانه: ٦٩١، ط: دار الزهراء، بيروت لبنان، عناية د عبد الوهاب عزام رحمه الله.

(٨١) اللباب في علوم الكتاب: (٦١ / ٦٠٤).

وذلك بعد أن فارقوا الدنيا وانكشفت لهم حقائق الأشياء، قال ﷺ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ التكاثر: ١، ٢. والمعنى: (شغلكم تفاخركم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أن تمّ. ويقال: كانوا يفتخرون بأبائهم وأسلافهم فكانوا يشيدون بذكر الأحياء، وبمن مضى من أسلافهم. فقال لهم: شغلكم تفاخركم فيما بينكم حتى عددتهم أمواتكم مع أحيائكم. وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعة الله.)^(٨٢)

كثير من نجوى الناس لا خير فيه

حكم القرآن على كثير من نجوى الناس بأنه لا خير فيه، واستثنى من هذا الحكم من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء: (١١٤). قَالَ مُجَاهِدٌ: (الآيَةُ عَامَّةٌ فِي حَقِّ جَمِيعِ النَّاسِ، وَالنَّجْوَى: هِيَ الْإِسْرَارُ فِي التَّدْبِيرِ، وَقِيلَ: النَّجْوَى مَا يَنْقَرُ بِتَدْبِيرِهِ قَوْمٌ سِرًّا كَانَ أَوْ جَهْرًا.)^(٨٣) فالحكم هنا عام في جميع الناس يمثل سنة الله ﷻ في الكثرة. ويشمل الزمان ويعم المكان والأفراد.

كثرة الخبيث لا تغني شيئاً ولو أعجبتك كثرته

ومن ضوابط سنة الله في الكثرة أن الخبيث والطيب لا يستويان ولو بدا للرائي ما يعجبه من كثرة الخبيث، وهذه سنة الله ﷻ في الكثير، فليس كل كثير جيداً، مهما بان رواؤه وظهر بهاؤه، ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرُهُ الْخَبِيثُ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة المائدة: (١٠٠). (وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِصِفَةِ الشَّيْءِ لَا بِعَدْدِهِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الْعِزَّةُ بِالْكَثْرَةِ بَعْدَ التَّسَاوِي فِي الصِّفَاتِ.)^(٨٤)

الكثرة المعجبة لا تغني عن المرء شيئاً

مضت سنة الله ﷻ في عباده بأن الكثرة المعجبة لا تغني عن أصحابها شيئاً، فهي في الحرب ليس لها قيمة ما لم تشفع بثبات، وفي السلم ليس لها وزن ما لم تؤيد بعمل، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَسَ مَدِيرِينَ﴾.

(إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة.

(٨٢) لطائف الإشارات: (٣/ ٢٦٧).

(٨٣) تفسير البغوي: (٢/ ٦٨٢).

(٨٤) تفسير المنار: (٧/ ٤٠١).

وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، تنزل أقدامهم وترجف في ساعة الشدة فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة. لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح!) (٨٥) وهذا ما وضحته الآية الأخرى في قوله ﷻ: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ سُورَةُ الْفَتْحِ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الأنفال: (١٩). فإن (من غلبته قدرة الأحد لم تغن عنه كثرة العدد). (٨٦)

وصف أكثر أهل الكتاب

وتنتقل سنة الكثرة من وصف عموم الناس، إلى وصف بني إسرائيل، وهم شريحة من الناس لهم من الصفات ما يستدعي الوقوف أمامهم، وتحليل تلك الأوصاف التي لم يكتف القرآن الكريم بأن يشاركوا عموم الناس فيما وصفوا به بل خصهم بصفات اطرادت فيهم اطرادا سننياً، فقد وصفهم بأن أكثرهم فاسقون، وأن كثيراً منهم ساء ما يعملون، وأن كثيراً منهم عموا وطموا، وكثيراً منهم يودون أن يردوا المؤمنين من بعدهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، وأن كثيراً منهم يصدون عن سبيل الله، وأن أكثرهم لا يعقلون، وأن كثيراً منهم يتولون الذين كفروا، وأن كثيراً من الأحرار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وجاء الواقع على مدار الزمن يؤكد تلك الأوصاف؛ فسبحان من وصفهم بها من حكيم خبير، ومن تتبع آيات الكثرة الدالة على تلك الصفات أن نصنف وصف أهل الكتاب حسب الكثرة على النحو الآتي:

(٨٥) في ظلال القرآن: (٣ / ٨١٦١).

(٨٦) لطائف الإشارات: (١ / ٣١٦).

أكثر بني إسرائيل لا عهد لهم وأكثرهم فاسقون

حكم القرآن الكريم أن أكثر أهل الكتاب لا عهد لهم، وأن أكثرهم فاسقون، قال ﷺ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٢). قال أبو جعفر: (ولم نجد لأكثر أهل هذه القرى التي أهلكتناها واقتصصنا عليك، يا محمد، نبأها من عهد، أي: من وفاء بما وصيناهم به، من توحيد الله، واتباع رسله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وهجر عبادة الأوثان والأصنام.)^(٨٧)

وتنوع حديث القرآن عن تأكيد هذه السنة في الكثرة عن أهل الكتاب في بيان فسق أكثر أهل الكتاب، وبعدهم عن سواء السبيل.

كثير من أهل الكتاب ساء ما يعملون

ذكر القرآن الكريم أن كثيرا من أهل الكتاب ساء ما يعملون، قال ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: ٦٦). أي: (كثير منهم سيئ عملهم، وذلك أنهم يكفرون بالله، فتكذب النصارى بمحمد ﷺ، وتزعم أن المسيح ابن الله، وتكذب اليهود بعيسى ومحمد ﷺ. فقال الله ﷻ فيهم ذمًا لهم: «ساء ما يعملون»، في ذلك من فعلهم.)^(٨٨)

كثير من أهل الكتاب عموا وصبوا

ووصف القرآن الكريم كثيرا من أهل الكتاب بأنهم عموا وصبوا، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: ٧١). (فعموا عن الحق والوفاء بالميثاق الذي أخذته عليهم، من إخلاص عبادتي، والانتهاه إلى أمري ونهيي، والعمل بطاعتي.)^(٨٩)

(٨٧) جامع البيان: (٢١ / ٠١).

(٨٨) جامع البيان: (٠١ / ٥٦٤).

(٨٩) جامع البيان: (٠١ / ٨٧٤).

كثير من أهل الكتاب يودون أن يردوا المؤمنين من بعد إيمانهم كفارا

وصف القرآن الكريم الكثرة من أهل الكتاب بأنهم يودون لو يردون المؤمنين إلى الكفر من بعد إيمانهم؛ حسدا من عند أنفسهم، وقد أيد الواقع الذي يعيشه الناس قديما وحديثا هذه الأحكام القرآنية المعجزة التي تظهر لكل ذي عينين أن هذا القرآن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ سورة فصلت: ٤٢.

ومن الآيات التي رصدت تلك الصفة لدى أهل الكتاب، وأكدت أن الكثرة منهم بهذا الميل القلبي والحييف الجائر ما ورد في قوله ﷺ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَمُوا وَاصْطَفُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة: (١٠٩). (ولكن كثيرا منهم ودوا أنهم يردونكم من بعد إيمانكم كفارا، حسدا من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد ﷺ، من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد، وأنه نبي إليهم وإلى خلقي كافة.)^(٩٠)، وهذه الكثرة هي مناط السننية في حديث القرآن الكريم.

كثير من أهل الكتاب ضالون ومضلون عن سبيل الله

وصف القرآن الكريم أكثر أهل الكتاب بأنهم ضلوا وأضلوا عن سبيل الله وسواء السبيل، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة: (٧٧).

أكثر أهل الكتاب لا يؤمنون

وصف القرآن الكريم أهل الكتاب بأن أكثرهم لا يؤمنون، فقال: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة: (١٠٠). أي: (بل أكثر هؤلاء - الذين كلما عاهدوا الله عهدا وواثقوه موثقا، نقضه فريق منهم - لا يؤمنون.)^(٩١)

كثير من أهل الكتاب يتولون الذين كفروا

يقول ﷺ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ سورة المائدة: (٨٠). (ترى كثيرا منهم، قال مقاتل: يعني: اليهود يتولون الذين كفروا من مشركي العرب. وقال الكلبي: ترى كثيرا من المنافقين يتولون الذين كفروا يعني: اليهود، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم، معناه: لبئس الفعل

(٩٠) جامع البيان: (٢ / ١٨٩٤).

(٩١) جامع البيان: (٢ / ٠٠٤).

الذي كانوا يستوجبون به السخط من الله ﷻ، ويوجب لهم العقوبة والعذاب وفي العذاب هم خالدون يعني: دائمون. (٩٢)

كثير من الأحرار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله

أكد القرآن الكريم للمؤمنين أن كثيرا من أهل الكتاب يأكلون أموال الناس بالباطل عن طريق الرشاوى والربا والسحت، ويزعمون لأتباعهم أنهم يفتونهم من الوحي، وينفرونهم عن الدخول في الإسلام، وأكد واقع الناس قديما وحديثا هذه الصفة في أهل الكتاب، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سورة التوبة: (٣٤).

فهؤلاء الأحرار والرهبان يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أرباباً تُتبع وتطاع وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. وأكل أموال الناس كان يتمثل في صور شتى ولا يزالون.

المبحث الرابع

سنن الله في الكثرة

المتأمل لآيات الكثرة في القرآن الكريم يجد خيطا دقيقا رقيقا يربطها، وسياجا واضحا يحكم صورتها، بما يؤكد السننية فيها، وأن الآيات تمضي بطريقة يكمل بعضها بعضا، ويؤكد بعضها بعضا في غير تنافر ولا غرابة، بل الكل يمضي ليؤكد هدفا واحدا، ويسعى ليؤدي رسالة واضحة، ويمكن أن نتابع رسم تلك الصورة الرائقة الفائقة في خطوتين:

الأولى: ملامح الترابط السنني في آيات الكثرة

الثانية: الأصول الجامعة لسنن الله في الكثرة

ويمكن أن نتناول ذلك على النحو الآتي:

أولاً: ملامح الترابط السنني في آيات الكثرة:

وإذا نظرنا إلى آيات الكثرة وتفحصنا سيرها ودلالاتها، رأينا أنها تمضي في خط واحد، وتهدف إلى رسالة واضحة، في كل الآيات الكريمة، بما يبرز السننية الواضحة والقاعدية المطردة، فهي مثلاً تأتي في مواطن لوم قوم نوح له على كثرة جداله لهم، وإلحاحه في دعوتهم، وترد في مواطن وصف قوم فرعون الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وفي مواطن لوم الله ﷻ للضالين من الجن الذين استكثروا من الإنس ووصف أكثر الناس بأنهم يضلون عن سبيل الله، وأن أكثر الجن والإنس ذرأهم لجهنم، وبيان أن كثيرا من الناس عن آيات الله غافلون، وبيان أن كثيرا من الخطاء يبغى بعضهم على بعض، وبيان أن أكثر الناس لا يشكرون، وأن أكثرهم لا يعقلون، وأن أكثرهم لا يعلمون، وأن أكثرهم يجهلون، وأن أكثرهم فاسقون، وأن أكثرهم لا يعقلون، وبيان أنه لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبت الرائي كثرة الخبيث. المتتبع لهذه الآيات الكريمة يجد الخيط الذي يربطها والمحور الذي تدور حوله، هو وصف أكثر الناس ووصف أكثر أهل الكتاب وهو من وصف البعض بعد الكل أو وصف الخاص بعد العام، ووصف لمفردات من الأشياء متجانسة كما مر في صلب البحث؛ بما يشعر الناظر المتأمل أن هذه السنة متكاملة المعالم واضحة الملامح بينة القسمات، جليلة الصفات.

ومن بينات الدلالة السننية في تلك الآيات ما يأتي:

• تعبيرات القرآن الكريم عنها بجلاء ووضوح بألفاظ تؤكد سننيتها مثل التعبير عنها بالأحكام العامة التي تتسم بالشمول والعموم، والقابلة للتطبيق في أفراد كثيرة مثل: (أكثر الناس)، (أكثرهم)، (كثير منهم)، ونحو ذلك من العبارات التي تبين السننية والحكمية في الدلالة.

• الأحكام المطلقة الواردة في الآيات، (أكثرهم، كثير، أكثر الناس، كثير منهم)، وهذا الإطلاق الذي تعبر عنه الآيات الكريمة سمة من سمات السنن الربانية، وخصيصة من خصائصها، سواء كانت سننا تتعلق بالكون والحياة، أو سننا اجتماعية، أو تاريخية، فردية أو جماعية.

• كما أن من بينات الدلالة السننية في آيات القلة والكثرة، ما ورد في تعقيب القرآن على كثير من الآيات التي تتناول وصف تلك السنة، من مثل قوله ﷺ بعد الحديث عن قوم طالوت وقصة الذين خرجوا من ديارم وهم ألوف حذر الموت: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٥٢. بلفظ (الآيات)، يقول ابن القيم في زاد المسير: (أي: نقص عليك من أخبار المتقدمين. وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ حُكْمُكَ حَكْمَهُمْ، فمن صدقك، فسبيله سبيل من صدقهم، ومن عصاك، فسبيله سبيل من عصاهم.)^(٩٣)، وتلك كلها عين السنن الربانية في خصائصها وبيانها وفي دلالتها وتعبيرها.

وقد عقب الله تعالى هذه السنن الواردة في قصة الألوف والملا من بني إسرائيل من بعد موسى بقوله: ﴿وَأُولَآئِكَ دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٥١

• التعبير القرآني عن الشخص الذي تدور عليه آية الكثرة أو تعقب عليه بالوصف لا بالاسم ولا بالرسم، مما يعطي شمولاً لكل من وصف وصفه، ونسج على منواله، وتلك واضحة في عدم ذكر اسم فرعون الذي عقب الله ﷺ على إغراقه بقوله ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾، حتى يمضي وصفه على كل (فرعون) ما بقيت الحياة، وتلك بعض ملامح السننية في القرآن الكريم، فهي لا تحدد الاسم، ولا الزمان، ولا المكان؛ حتى يفيد الناس من الوصف، ولا يتوقفوا عند الاسم والرسم، ولكن أكثر الناس غافلون عن هذه العبر، وتلك الفوائد التي تبقى ما بقي الإنسان، وتتعاقب ما تعاقب الليل والنهار.

(٩٣) زاد المسير في علم التفسير: (١/ ٧٢٢).

• كثرة التأكيدات في التعقيب على بعض آيات الكثرة لفتا لأنظار الناس وبيانا لسننية الآيات الكريمة مما يدعو إلى لفت أنظار الناس إليها وتنبههم إلى الإفادة منها؛ لأنها تتكرر مع غيره كما حدثت له، كما يقول صاحب المنار في بيان أثر المؤكدات الواردة في شأن فرعون: (وَأَكَّدَهُ هَذَا التَّأَكُّدَ لِمَا تَقْتَضِيهِ شِدَّةُ الْعُقْلَةِ مِنْ قُوَّةِ التَّنْبِيهِ، أَيْ إِنَّهُمْ لَشَدِيدُو الْعُقْلَةِ عِنْدَهَا عَلَى شِدَّةِ ظُهُورِهَا فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي أَسْبَابِهَا وَتَنَائِجِهَا وَحَكْمِ اللَّهِ فِيهَا، وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَإِنَّمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهَا مُعْرِضِينَ كَمَا يَمُرُّونَ عَلَى مَسَارِحِ الْأَنْعَامِ، وَفِيهِ دَمٌّ لِلْعُقْلَةِ، وَعَدَمُ التَّفَكُّرِ فِي أَسْبَابِ الْحَوَادِثِ وَعَوَاقِبِهَا وَاسْتِيَانَةِ سُنَنِ اللَّهِ فِيهَا، لِلْإِعْتِبَارِ وَالِإِتِّعَاطِ بِهَا).^(٩٤)

ثانيا: الأصول الجامعة لسنن الله في الكثرة

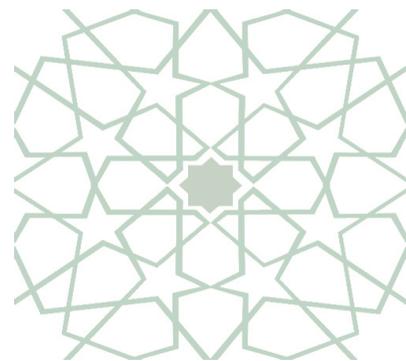
بعد رصد الآيات التي تناولت الكثرة: مكية ومدنية، وسواء كانت تلك الكثرة في الأمم، أو الأفراد أو الأشياء ودرسها وتأمل دالاتها يمكن أن نستخلص في نقاط السنن الماضية والأصول الجامعة في قضية الكثرة على النحو التالي:

- أن الكثرة شملت في آياتها الأفراد والأمم.
- أن منها ما يتعلق بالناس، ومنها ما يتعلق بأهل الكتاب، وفي كل تمضي في سننية مطردة تزيدها الحياة تأكيدا، خاصة في المقدور على معرفته من واقع الناس وأحداث الحياة.
- أن الكثرة تكون محمودة إذا كانت فيما يفيد كالكثرة في عدد القبيل والآل الذين يستعان بهم في قضاء المراد، والتغلب على الأعداء.
- أن الكثرة تكون محمودة إذا كان العدد فيها لا يؤثر على النوع، والكم فيها لا يفسد الكيف، بل يدعمه ويقويه.
- أنها تكون محمودة في استجلاب الخير، والحرص عليه.
- أنها تكون محمودة في باب ذكر الله ﷻ، وشكره وتسبيحه.
- وتكون محمودة إذا كانت في جانب النفع عامة للبلاد والعباد، كالكثرة في الغيث المفيد الذي يحيي الله به البلاد ويقيت به العباد.

(٩٤) تفسير المنار: (١١/٠٩٣).

تلك بعض الأصول الجامعة التي يمكن أن تصور لنا سنن الله ﷻ في القلة في ضوء الآيات الكريمة، والتي يمكن أن يفيد منها المسلمون عامة والمعنيون بنهضة الأمة خاصة، وسببين ذلك في صفحات آتية لدى الحديث عن ريادة القلة وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة، وفقه صناعة القلة الرائدة. وهذا ما ستعالجه الصفحات الآتية بعون الله وتيسيره.

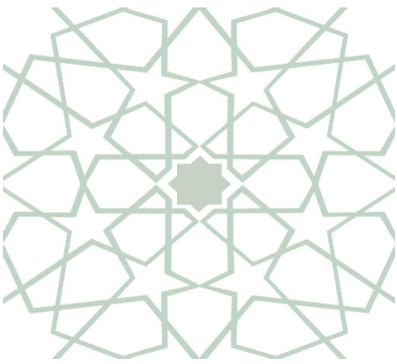
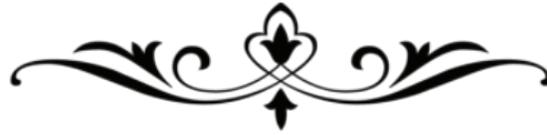


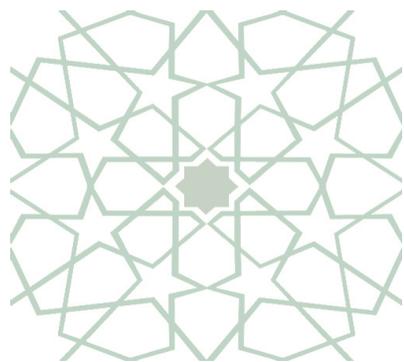




الفصل الثالث:

موقف المسلمين من سنت الله
في القلت والكثرة
بين الوعي والسعي





الفصل الثالث

موقف المسلمين من سنة الله في القلة والكثرة بين الوعي والسعي

وفيه مبحثان

المبحث الأول: زيادة القلة وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة وموقف الأمة منها
المبحث الثاني: فقه صناعة القلة الرائدة، في ضوء هذه السنة وموقف الأمة منها.

المبحث الأول

زيادة القلة وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة،

وموقف الأمة منها

سنة الله في وجود القلة

جرت سنة الله ﷻ في عباده أن يجعل في كل زمان قلة رائدة، تدعو الناس إلى الهدى، وتردهم عن الردى، وتهديهم إلى صراط الله المستقيم. والناظر في حياة الأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين يجد أنهم بدأوا دعواتهم أفراداً، ثم انضم إليهم من حمل فكرتهم، وتبنى رؤيتهم، وبذل في سبيلها، وضحى من أجلها، حتى استقرت على النهج المبتغى، والهدف المرتجى، وأفاد منها من يسر الله له سبل الهداية والرشاد، (فكل المحاولات التي غيرت مجرى التاريخ أو عدلته وقومته بدأت بأفراد، فإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وكل الرسل ﷺ بدأوا أفراداً، وعن طريق التأثير التربوي آمن بهم البعض فعاونوهم فتوسع التأثير حتى غير مجرى الحياة، وخبر المصلحين المجددين من بعد الأنبياء مشهور مستفيض، وكذلك كل المحاولات غير الإسلامية، (مع الفارق البين) فأصحاب البدع في التاريخ بدأوا أفراداً، ثم انتهوا إلى تكوين طوائف واسعة، وماركس وهتلر كل منهم بدأ فرداً واستعمل التأثير التربوي فكون حزبا واستلم الحزب السلطة فتغير مجرى التاريخ، ولا مغير إلا الله ولا من حركة إلا بإذنه، وكذلك هرتزل ووايزمن وأصحابهما، بدؤوا أفراداً واستغلوا التأثير التربوي المزدوج في اليهود وشعوب العالم أجمع فتغير مجرى تاريخ اليهود)^(١)

(١) منهجية التربية الدعوية، محمد أحمد الراشد، ط: دار الحراب، ط: أولى ٢٢٤١هـ، ١٠٠٢م.

والناظر في أنواع القلة التي حفل بها التاريخ البشري قديما وحديثا يجد أن لها أثرها البارز ومهمتها التي لا تنكر، فالقلة المؤمنة مع نوح عليه السلام والتي وصفها قومه بأنهم أراذل وأنهم اتبعوه بادي الرأي بلا تفكر ولا وعي، هي الفئة التي عمرت الأرض وبلغت رسالة الله تعالى وحفظ بهم الله تعالى البشرية من الفناء، وأصحاب الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا بعدا عن طواغيت الأرض وظلمهم ونأيا بدعوتهم من أن يستأصلها البغاة الطغاة، رواد في الحفاظ على دينهم، ويوسف في أهل مصر فرد واحد لكنه استطاع أن يعبر بهم سني الغلاء والبلاء، وأن يكون ذلك مفتاح إسلامهم له وإيمانهم بدينه، استطاع أن يقود هذه الأمة بما لديه من حفظ وأمانة، وعلم وتخصص، وذو القرنين فرد وهو من القلة لكنه استطاع أن يفيد من القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، وكيف آثر أن يشركهم معه في البناء الحضاري الذي يفوق بناء السد، فبناء الإنسان ودلالته على مكان نفسه وإرشاده إلى قدراته واكتشاف نفسه أمر لا يقدر بثمن وتبذل فيه المهج والنفوس، وأهل بدر الذين كانوا مقارنة بعدوهم قلة استطاعوا أن يفرقوا - بإيمانهم وبذمهم وتضحيتهم - بين الحق والباطل لهم ولمن بعدهم حتى سمى الله تعالى يوم لقائهم بعدوهم (يوم الفرقان)، وكان لهم بعد في مجتمع النبوة وما بعده شأن أي شأن، وهكذا كل قلة في كل زمان ومكان.

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بالحديث عن أن الرواد في كل زمان قلة، وأن الفاعلين في مجرى الحياة قلة، وأن النهضات البشرية والحضارية والإصلاحية حمل لوائها قلة، وأن الكثرة غير الفاعلة لا وزن لها ولا قيمة فهي غطاء كغشاء السيل، أو جمع كحطب الليل، أو هباء تذروه الرياح، ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة: (١٠٠). (وقد جرت عادته تعالى بكثرة الخبيث من كل شيء، وقلة الطيب من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ سورة ص: «٢٤»، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ سورة سبأ: «١٣» وفي الحديث الصحيح: «النَّاسُ كِابِلٌ مِائَةٍ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١) وقال الشاعر:

إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ لَكِن لَأَرَى أَحَدًا^(٣)

(٢) أخرجه البخاري، باب رفع الأمانة، ٤٠١/٨، ومسلم باب الناس كإبل مائة، ٣٧٩١/٤.

(٣) انظر البيت في العقد الفريد: ٢٥١/٢.

فأهل الصفا قليل في كل زمان، ولذلك خاطبهم بقوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ أَي: القلوب الصافية في تجنب الخبيث وإن كثر، وأخذ الطيب وإن قل، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بصلاح الدارين. (٤)

والعبرة في القلة ليس العدد، بل جودة المعدن، ونفاسة المحتد، وطيب المنبت، وعراقه الأصل، والعمل الذي يولده حَمَلُ الرسالة، وتقدير المسؤولية، والانشغال بهم الأمة التي يعيشون فيها بل تعيش فيهم، إن صحت النوايا واستقام الفهم، وإلا لو استوت القلة والكثرة في صفة من الصفات فإن قانون الله الغالب وسنته الماضية أن يكون الأمر في جانب الكثرة، ومن معاني قوله ﷺ (قل لا يستوي الخبيث والطيب) أي: (في القلوب والأحوال والأعمال والأموال والأشخاص، فالطيب من ذلك كله مقبول محبوب، والرديء مردود ممقوت، فالطيب مقبول وإن قل، والرديء مردود ولو جل، وهو معنى قوله: وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فالعبرة بالجودة والرداءة، دون القلة والكثرة،) (٥).

وإلا فالعدد المؤثر مقصود، ومن سنن الله التي لا تتغير سنته في الغلب والنصر، وهو ما حوته آية سورة الأنفال، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۗ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

سورة الأنفال - ٦٦ -

فالنص على العدد هنا له دلالة، و(نفهم من هذه الآية أن صبر عدد قليل كعشرة أمام ألف لا يشترط إحراز النصر، فكأن الآية تتحدث عن توازن في الكم والكيف ضمن حدين . ويمكن الاختلاف على اعتبار أن العدد لا مفهوم له. ولكن الذي لا يمكن الخلاف عليه هو اعتبار التوازن في الكم والكيف، وزيادة الكم حين يضعف الكيف، وهذا واضح في قوله ﷺ: «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين»، بعد أن كانوا يغلبون ألفاً.

فمن هنا نفهم، أن الغلب أو النصر الذي يحرزه المجتمع، أو الأمة المخاطبة بقوله: (منكم) لا يتم بثبات فرد، أو بأن يكون ما بنفس فرد قد تغير، إذ لا بد من ثبات عدد معين له حد أدنى وأعلى، وإن كانت آية سورة الأنفال هذه تحدد الكم، وتدخل عامل الكيف،

(٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٢ / ٠٨).

(٥) السابق: ٠٨/٢.

الذي جاء بحثه في موضوع خاص ألا وهو الثبات في المعركة. إلا أن هذه الخصوصية ليست محصورة في المعركة القتالية، فمعارك الحياة كثيرة، فمعركة بناء المجتمع كذلك تحتاج إلى التوازن نفسه. ونذّر الإنسان نفسه، وما وهبه الله من قوة وعمر في سبيل فهم مشكلات المسلمين، يشمل كذلك نفس التوازن، سواء ذلك في بناء الفرد والمجتمع.

ومعركة التعامل مع سنن الله على أساس الوعي، أمر يشمل الكافرين والمؤمنين، وأن الفقه لسنن الله يعطي النتائج حتى للكافرين، ولما قال تعالى: « يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » أعقبه بقوله « بأنهم قوم لا يفقهون » فهذا يدل على تدخل فقه الكافرين أيضاً، كما وكيفاً، ولا سيما الفقه لسنن الحياة الدنيا كما سنبحثه فيما يأتي، لأن الله يمد المؤمنين والكافرين:

﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَظَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَظَاءَ رَبِّكَ مُحْظُورًا ﴾ . سورة الإسراء - (٦)

لماذا الفئة المؤمنة قليلة

المتأمل للقلّة في الآيات التي رصدتها، وتحدثت عنها في ثنايا القرآن الكريم، يجد أنها قاعدة مطردة، وسنة حاكمة، وأن الفئة المؤمنة دائماً قلّة، فالذين عبروا النهر مع طالوت قلّة، والذين اتبعوا نوحاً في دعوته قلّة، والذين آووا ونصروا قلّة، وهكذا في سننية ماضية، وناموس لا يتخلف ولا يتأجل، (فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله. القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة؛ لأنها تتصل بمصدر القوى؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين) (٧)

خطورة عدم وجود القلّة العاملة

والمجتمع الذي يخلو من قلّة تقوده، وفئة مختارة تروّده، ونخبة سابقة ترتاد له مواطن الخير، تكون وارده إليها، وفرطاً له لديها، تدله عليها، وترشده إليها، وتحذره من مغبات الشر والفساد، وتحذره منها، مجتمع على خطر عظيم؛ لأن القلّة الرائدة في كل مجتمع بمثابة العقل الواعي، والذاكرة الواعية التي تحفظ الأمة، وتحفظ لها، وتعي أسباب عزها ونصرها، وعوامل تحللها وفسادها، وهؤلاء هم أولو البقية التي يعبر عنهم القرآن الكريم في قوله: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَهَجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ سورة هود: (١١٦).

(٦) حتى يغيروا ما بأنفسهم: ٤٣، ٥٣.

(٧) في ظلال القرآن: ١/٩٦٢.

(وهذا النظر إلى الموضوع يبين خطورة أن يبقى في المجتمع أعداد، مهما كانوا قلة، لا يتمتعون بالوعي التام لقضايا المجتمع . وكذلك ، خطورة عدم وجود العدد الكافي، أو الحد الأدنى، من الذين يعون الأمور على هذا الأساس من النظر. وإدراك ضرر وجود غير الواعين في الأمة، يولد لدى المجتمع شعوراً بالخطر، أن يكون المركب الذي يسير بالمجتمع، يحتوي على نماذج لا تعرف سنن طفو الأجسام على الماء، فيسعون بحسن نية، أو سوء نية، لخرق السفينة، كما ورد في الحديث الشريف الصحيح^(٨).)^(٩)

سر الريادة في القلة وعلاقة ذلك بالسنية

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم ومطابقتها لواقع الحياة والأحياء أدركنا سر كون الريادة للقلة وأن ذلك سنة من سنن الله ﷻ؛ ذلك أن العبرة في الأشياء بخصائصها وصفاتها وكيفها، لا بعددها وكثرتها وكمها، وقد فصلت آية سورة الأنفال هذه القاعدة أيما تفصيل، فجاءت (بِالْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِصِفَةِ الشَّيْءِ لَا بِعَدَدِهِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الْعِزَّةُ بِالْكَثْرَةِ بَعْدَ التَّسَاوِي فِي الصِّفَاتِ.)^(١٠)

والقليل النافع المفيد من الأشياء والأحياء هو الذي يكتب له القبول والبقاء، والخيرية والسر في ريادة القلة في كل زمان؛ أنها تحمل من الخصائص والسمات ما يختزل لها الزمن ويطوي لها القوى والثدّر، ويجمع فيها من أسس البقاء والتحمل ما لا يتوفر لغيرها، فهي في جهدها تختلف عن غيرها، وفي عطائها تباين من سواها، وفي مقاييسها ومعاييرها نمط آخر، تستمد من مصدر قوتها وإلهامها ما لا يقدره إلا الراسخون، وما لا يعرفه إلا العاملون الواعبون، وهذا ما عاشته الفئة المؤمنة مع داوود عليه السلام، في حركتها وسيرها، وفي دعائها وتعبيرها، وفي نصحتها وإرشادها، وهذا هو السر في الريادة من هذه القلة التي ذكرها القرآن نموذجاً يحتذى، وأسوة تقنّدى، في بيانها وتعبيرها، وفي ثققتها وتوكلها، وفي مقياسها للأشياء، وميزانها للأحداث، ورؤيتها للأمور.

(٨) إشارة إلى حديث السفينة: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها)، والحديث خرجه الباري في صحيحه من حديث النعمان بن بشير، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ٣/٣٩١.
(٩) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ط الثالثة، ٧٩٣١هـ، ١٧٧٩١م: ٦٣، ٥٣.
(١٠) تفسير المنار: ٤٠١/٧.

أثر ريادة القلة في المجتمع

وهذه القلة وإن كانت في أعين الناس كذلك إلا أنها في الواقع ونفس الأمر كثيرة، كثيرة بأفعالها، كثيرة بأثرها، وقد وصفها الله ﷻ بهذا الوصف في آية سورة البقرة، في قوله ﷻ ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، مع أن المتوقع في غير القرآن أن التقسيم يكون بعضهم قليلاً وبعضهم كثيراً، وهذا لبيان أنهم في أثرهم وفعلهم كثرة، (فإن قيل: كيف وصف المهتدين هنا بالكثرة وهم قليلون.. فالجواب أنهم، وإن كانوا قليلين في الصورة، فهم كثيرون في الحقيقة)^(١١) أو (تحمل الكثرة على الكثرة المعنوية يجعل كثرة الخصائص اللطيفة بمنزلة كثرة الذوات الشريفة كما قيل:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عد ألف بواحد)^(١٢)

وهذه القلة هي التي يحمي الله ﷻ بها الأمة، وينهض بها الكسالى، ويوقظ بها النائم، فالقلة مع طالوت هي التي أعطت النموذج الصابر والواعب لسنن الله ﷻ في الحياة والأحياء، وهي التي أعطت القدوة من نفسها، في صبرها على الظمأ، وإرادتها القوية، وتغلبها على نفسها ومتطلباتها الأساسية، وهي التي من أجلها صنع الله ما صنع في جالوت وجنوده، وهي التي من أجلها صنع الله ما صنع في الأرض من طوفان نوح، ذلك أن ثبات هذه الفئة هو الذي يغير مجرى الحياة، وانتفاضة تلك المجموعة هي التي أزهرت عصور بني إسرائيل في عهد داوود.

أثر هذه القلة في النهضات والشهود الحضاري

هذه القلة هي التي تؤثر في الشهود الحضاري للأمم والجماعات، وهي التي تقوم بها الحضارات، وتستمر بها أسس التمكين، فلها الريادة فيه، وعليها المعول في بقائه، والنماذج التي ذكرها القرآن للقلة خير شاهد على هذا، (إذ هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعب: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وَثَبَّتْ أقدامنا • وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ • وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ • وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ • وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وكانت النتيجة هي التي ترقبها واستيقنوها: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ويؤكد النص هذه الحقيقة: «بِإِذْنِ اللَّهِ» ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علماً، وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه. إن المؤمنين ستر

(١١) اللباب في علوم الكتاب: (١/ ١٧٤).

(١٢) حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي، عناية القاضي وكفاية الرازي: (٢/ ٩٩).

القدرة، يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار بإذنه، ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريد بإذنه، وهي حقيقة خلقية بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين، إنه عبد الله، اختاره الله لدوره، وهذه منة من الله وفضل. وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قدر الله النافذ. ثم يكرمه الله - بعد كرامة الاختيار - بفضل الثواب. ولولا فضل الله ما فعل، ولولا فضل الله ما أئيب. ثم إنه مستيقن من نبل الغاية طهارة القصد ونظافة الطريق، فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة قائم بما يريد. استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص^(١٣)

وإذا تتبعنا القلة ومهمتها في نهضات الأمم عرفنا قيمتها وأثرها، ورسد القرآن الكريم لها دليل صدق، وبرهان حق على هذا الأثر للقلة العاملة، وواقع الناس بفطرتهم السوية وإدراكهم السليم يعي هذا الأمر ويعمل في ضوئه، فالعرب ببساطتهم وصفاء فطرتهم يعرفون هذه المعادلة وكلامهم في دواوينهم التي حفظت خصائصهم في ذلك غني عن التعقيب.

وهذه القلة المختارة والصفوة المنتقاة هي التي تؤثر ولا تتأثر، وتقود ولا تقاد، وتنبع ولا تنبع، أما الكثرة الفارغة من كل عطاء، والقاعدة عن كل مضاء، فلا تقوم بها حضارة، ولا تنهض عليها أمة، ولا يؤسس عليها تمكين، (إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة. وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة. لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح!)^(١٤)

(١٣) الظلال: ١/٧٢٠.

(١٤) في ظلال القرآن: (٣/ ٨١٦١).

القلة مع نوح عليه السلام وأثرها في الشهود الحضاري

وإذا نظرنا إلى قلة مؤمنة أخرى عاشت المحنة والمنحة، والبلاء والعطاء، والسلب والإيتاء، وهي القلة المؤمنة مع نوح عليه السلام وجدنا كم كان جهدها في الشهود الحضاري وكم كان لها من مهمة في بقاء بذور الإيمان بالله، ولذا صنع الله لها ما صنع من إغراق الكافرين وتغيير ناموس الأرض، (إن هذه الحفنة - وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - قد استحقت أن يغير الله لها المؤلف من ظواهر هذا الكون وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد، وهذا أمر خطير.)^(١٥) ونوح عليه السلام هو أول من صنع الفلك، الفئة المؤمنة معه هي التي منعمت الدنيا واستقرت الحياة.

حاجة القلة المعاصرة للإفادة من هذه الملامح

والقلة المؤمنة اليوم التي تسعى لريادة البشرية باسم الله، وقيادة الدنيا بالدين، في أمس الحاجة لتفهم هذه الملامح السننية في قانون القلة، وإدراك هذه الأسس التي تتكرر في كل زمان وفي كل قلة؛ لأنها قانون مطرد وناموس حاكم، وفي حاجة ماسة لإدراك عاقبة هذه القلة التي رصدها القرآن، وألح في عرض صورها، ونوع في بيان خصائصها، على تباعد الزمن وتباعد المكان، وتغاير الأفراد، إلا أن القانون واحد في كل زمن وفي كل مكان، (إن طلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها والتي تعاني الغربة في هذه الجاهلية والوحشة كما تعاني الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل، إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير، وأمام دلالاته التي تستحق التدبر والتفكير! إن وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى، شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمراها ومنشأتها وقواها ومدخراتها جميعاً كما يستحق منه سبحانه أن يكالاً هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتتجو وترث الأرض وتعمرها من جديد! لقد كان نوح عليه السلام يصنع الفلك بأعين الله ووحيه، كما قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾^(١٦)

(١٥) في ظلال القرآن: (٤ / ٢٩٨١).

(١٦) في ظلال القرآن: (١ / ٧٢٠).

وحينما تدرك هذه الطلائع تلك العاقبة وتدرك قبلها اتفاق السمات والخصائص، وتوافق الملامح والصفات، يأتيها شيء من برد اليقين، وروح الإيمان وهدوء الاطمئنان إلى سلامة العاقبة، وحين تدرك تأييد الله ﷻ للقلّة العاملة وتغيير نواميس الكون لها بسننه الخارقة، توقن من نصر الله لها، وحمايته لبقائها.

تغيير نواميس الكون للقلّة المؤمنة

وهذه القلّة المؤمنة مرعية بعين الله ﷻ وفي عنايته؛ إنها البقية الباقية التي تسعى لتعبيد الناس لله، وتهيئة الوجود لأرقى حالات الشهود، تتحمل ما تتحمل في سبيل تعريف الناس برحم، وصلتهم به، ودلائهم عليه، وهي من أجل ذلك استحقت أن تحظى برعاية الله ﷻ وتأييده، فيغير لها النواميس ويخضع السنن الجارية في حقها للسنن الخارقة، فالكمل مربوب لله رب العالمين، والمتأمل للقلّة مع داوود يجد بوضوح هذا التغيير، فداود قتل جالوت بمقلاع، بسيط، والعدد القليل الذي عبر النهر هو الذي تهيأت له الأسباب للغلبة على الكثرة المغرورة، والقلّة المؤمنة مع نبينا محمد ﷺ هي التي تغير لها وبها الناموس الحاكم والسنن الجارية، فانتصروا في بدر وغيرها وهم لا يصلون إلى ثلثي عدد جيش عدوهم، والقلّة المؤمنة مع نوح هي التي غير الله ﷻ لها السنن الجارية فأرسل لها الطوفان، وحمله على ذات ألواح ودرس، تجري بأعين الله ﷻ جزاء لمن كان كفر، (إن عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة - وفق مشيئة الله الطليقة - ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرى، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها. وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها، ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً، ويلاسون آثارها المبدعة. والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً، بكل ما في طاقتهم من جهد، ثم يدعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ، فَأَنْتَصِرْ»، ثم ينتظروا فرج الله القريب. وانتظار الفرج من الله عبادة فهم على هذا الانتظار مأجورون.)^(١٧)

(١٧) - في ظلال القرآن: (٤/ ٣٩٨١).

مهمة القلة المؤمنة اليوم

ومهمة القلة المؤمنة اليوم التي تسعى لإنهاض أمتنا على أسس ربانية، في حاجة ماسة لمعايشة هذه السنن، تقف أمامها طويلاً وترى كيف نصر الله القلة المؤمنة، خاصة وان العالم العربي اليوم في حالة محاض جديد يؤذن بميلاد عصر سعيد ورشيد، تعلق فيه كلمة الحق والعدل والحرية، سيما وقد عاش الناس عصورا من الخسف والتنكيل، والمسخ الفكري، والته التاريخي الممنهج، وأن لها أن تعود إلى ربها وكتابه ومنهاجه، والسعيد من وُعط بغيره، وقد بصر الله ﷺ القلة المؤمنة الأولى مع النبي محمد ﷺ للوقوف والتذكر لتقارن بين حالين، وتبصر الفرق بين زمانين، زمان القلة والذلة، والهوان والامتهان، وزمان الإيواء والعناية، وعندما تقف القلة المعاصرة الرائدة بهذه النية وهذا العزم وتبصر السابق وتنسج على منواله تنجو كما نجا، وتحيا عزيزة الجانب مرعية الجانب، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المبحث الثاني

فقه صناعة القلة الرائدة وموقف الأمة منها

إذا تأملنا واقع المسلمين بين الماضي والحاضر، وموقفهم من سنة الله في القلة والكثرة، رأينا أن وعي المسلمين بها وعنايتهم بأثرها، أو إهمالهم لها وعدم اهتمامهم بها هو الذي شكل محور الأساس وحجر الزاوية في فترات الانتصار أو الانكسار، فيوم أن وعى المسلمون - على ضوء مقاصد القرآن، وفلسفته للقلة والكثرة بل سنته فيها - يوم أن وعوا أثر القلة في الشهود الحضاري وقيمة هذا التضام والتجمع على مستوى العلماء والأمرء، والنخبة الفكرية والعلمية وعلى مصاف السياسة والحكام، والزهاد وأرباب السلوك، يوم أن عزوا وقدموا للبشرية - فضلا عن الإسلام أروع صور الحضارة، وأرقى نماذج الإنسان عندما يبدع ويتكرر في ضوء مقولات الوحي ومتطلبات السماء، ويوم أن أغفلوا النظر إلى هذه السنة الماضية وأهملوا التعامل معها يوم أن أصبحوا غثاء كغناء السيل أو هباء تذرره الرياح، فلا وزن في عالم الحضارة، ولا قيمة في دنيا الأرقام، ولا سبق في مجال العلم ولا ريادة في جانب الاجتماع، وكانوا هم من انطبقت عليهم السنة في القلة والكثرة كما انطبقت على غيرهم. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ سورة الرعد: من الآية: ١٧ .

وإذا سألنا التاريخ عن فترات الشهود الحضاري للأمة المسلمة أخبرنا أنها تلك الفترات التي فهم المسلمون فيها أثر هذه القلة ومهمتها في الشهود الحضاري وإنهاض الأمة، وقد بدا ذلك في عصور متتابعة، فيوم أن تصدر العلماء لإرشاد الأمة ونصح الأمرء بالكتاب والسنة، فيوم أن وصلت الأمة إلى مرحلة مشهودة من التمكين، وإذا نظرنا إلى محنة ضياع الأقصى وكيف عاد إلى دوحه الإسلام وحصن المسلمين عرفنا مهمة القلة من العلماء الرواد الذين تعاونوا مع الأمرء الحكماء في معركة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي، عام ٥٨٣هـ، والتي لم تكن وليدة تراتيب إدارية وعسكرية فقط، بل تراتيب تربوية لنفوس الجيش والأمة، وليس على مستوى المرحلة الزمنية للمعركة بل على تطاول أجيال متعاقبة في عهود زنكي ونور الدين ثم صلاح الدين، (فإن عددا من الدعاة والعلماء قد وقفوا مع هؤلاء الأبطال الثلاثة - زنكي ونور الدين وصلاح الدين، - وكان على رأس هؤلاء المؤرخ بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد

(٥٣٩/٦٣٢هـ)، والفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري (٥٨٥هـ)، والمؤرخ المعروف عبد الله محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب، (٥٩٧هـ) الذي كان قلمه كما يصفه المؤرخون أشد وأنكى على الصليبيين من سيوف المجاهدين، إذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم وحبب الاستشهاد إلى نفوسهم^(١). ومثّل وعي العلماء وفقههم بمتطلبات الحضارة وإقرار شؤون الدولة ومصالح العباد ورعايتهم، جانبا مهما من علاقتهم بالأمرء ومدى تأثيرهم فيهم وسماعهم رأيهم، فقد أشار القاضي الفاضل على صلاح الدين بعد صلح الرملة (٥٨٨هـ) بتأجيل الحج إلى سنة أخرى لأسباب عرضها عليه؛ مؤيدا إقناعه بفتوى دينية نصها: أن الانقطاع لكشف مظالم الخلق أهم من كل ما يتقرب به إلى الله^(٢).

والمطالع لحقب التاريخ المتطاولة في حياة المسلمين يرى ريادة القلّة والتكامل بينها وبين الأمة عن طريق قيادتها وتبصيرها، مما كان له أبعاد الأثر في نهضة الأمة فالتكامل بين السياسة والدعاة في العصر المملوكي والعثماني كان له أثره البالغ في حضارة الأمة واستقرارها، كما لا يخفى على المطالع للتاريخ مدى التكامل بين أمرء الممالك والعلماء في مقاومة التتار، وإذا نظرنا إلى بلاد المغرب وبلاد الهند واستعرضنا مواقف العلماء والقلّة الرائدة وأثرها بالأسماء والأرقام؛ عرفنا مدى أثر الوعي بسنة القلّة وريادتها في الشهود الحضاري.

ووجود هذه القلّة الرائدة الأمرة بالمعروف الناهية عن المنكر الداعية إلى صراط الله المستقيم ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته؛ (فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية، هو الوسط الخيّر المتكافل المتعاون على دعوة الخير، المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل، والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم، عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر، والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة، والحق فيه أقوى من الباطل، والعدل فيه أنفع من الظلم، فاعل الخير فيه يجد على الخير أعوانا، وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً. ومن هنا تبرز قيمة هذا التجمع، إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه، والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه...)^(٣)

(١) المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، د عبد الحليم عويس، ٤١١، ط: مكتبة العبيكان، ط أولى ٧٢٤١هـ، ٦٠٠٢م.

(٢) السابق، نقلا عن: المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين الأيوبي، لنظير حسان سعداوي: ١٣، ٢٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٤٤٤/١، ٥٤٤.

كيفية صناعة القلة الرائدة

وإذا انتقلنا من التنظير إلى التطبيق ومن ميدان الكلام إلى ميدان العمل نستطيع أن نرصد في برجة عملية وخطوات إجرائية كيفية صناعة القلة الرائدة التي ترود أمتها إلى الشهود الحضاري وأستاذية العالم كما أراد الله ﷻ حين أخبر: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ سورة البقرة: من الآية: ١٤٣.

ويمكن أن نرصد بعض الخطوات العملية التي من شأنها أن تساعد في صناعة القلة الرائدة على النحو التالي:

١- إدراك أهمية هذه القلة الرائدة، والقناعة العملية وليست الفكرية أو النظرية بمدى حاجة الأمة إلى ريادة حقيقية إن لم تكن على المستوى الرسمي من الحكومات والدول فلتكن على مستوى أصحاب الرأي والفكر والمعنيين بالهَمِّ الإسلامي العام، والمنشغلين به؛ فقد ثبت عمليا أن غياب الوعي وعدم الإدراك الحقيقي لمدى خطورة فراغ الأمة من قلة رائدة أثر تأثيرا مروعا في عدم بروز هذه القلة، وعدم العناية بها إذا برزت، وبدا ذلك بصورة ملحوظة لافتة في عدم تفرغ كفايات علمية لحمل ما خلقت من أجله من وعي يكون أساسا للسعي، ومن ثم توعية الأمة برسالتها ومهمتها حسب طبيعة كل مرحلة من المراحل التي تمر بها والمكان الذي تشغله، فما يصلح في وقت قد لا يصلح في وقت آخر، وما ينفع في زمان قد لا ينفع في زمان آخر وما يفيد قوما قد لا يفيد منه آخرون، وقد حوت الشريعة الإسلامية من عوامل السعة والمرونة ما أثبت لدى البعيد قبل القريب صلاحيتها لكل زمان ومكان.

وهذه القناعة العملية الحقيقية ليست بالأمر السهل اليسير بل تحتاج إلى توطين النفس واكتشاف نقطة البداية؛ لأن معرفة مدى حاجة الأمة إلى قلة رائدة لها أثر تربوي وفكري وعلمي يستطيع أن يؤثر ولا يتأثر ويجذب ولا ينجذب أمر هام ومؤثر، واكتشاف نقطة البداية هذه له ما بعده من تكاليف ومشاق، (ولعل أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه حيث يسير خبط عشواء، ولا عجب فإن كوارث التاريخ التي تحيد بالشعب عن طريقه ليست بشاذة)^(٤)

(٤) شروط النهضة، مالك بن نبي: ٧٤، ط: دار الفكر ١٩٩٣هـ، ١٩٧٩م.

٢- إعداد قيادات المستقبل، في ضوء النظرة الاستشرافية العامة التي تنورنا بها

قضية السنن بصفة خاصة؛ فإن أوجب الواجبات لدارس السنن أن يفيد منها، ويفيد من تيارها ولا يصادمها، خاصة أن من خصائصها عدم التبدل أو التغيير، فإذا وعينا ثباتها واطرادها فلنقد منها على ضوء خصائصها وسماتها، وقد ثبت سنننا من خلال عرض هذه السنة في القلّة والكثرة: أن الريادة لكل أمر لا تكون لعامة الناس ولا لجمهور البشر بل لفئة لها من الوعي ما يعينها على إحسان السعي، ولها من العلم ما ييسر لها إتقان العمل، وقد سبقنا الغرب في هذه الدراسات الاستشرافية والمستقبلية بصورة جعلته يفيد من السنن وإن لم يُسندها إلى ربها ومجريها، لكن على عادة السنن أنها تعطي من يحسن التعامل معها دون تفريق بين مسلم وكافر، وتلك من خصائص السنن التي لا تتخلف، فأينا الدراسات الرقمية والإحصائية التي تمهد لاتخاذ القرار الصحيح، وكثير من أعمالنا ارتجالي لحظي، لا يمهّد له بدراسة ولا يبنى على معرفة متينة ومعلومة قوية، وهذا ما جعل أعمالنا تخضع إلى حد كبير لمفاجئات القدر، مع أننا أولى الناس بالوعي بالسنن فكل شيء في ديننا (بحسبان)، وب (تقدير العزيز العليم) عبادةً ومعاملةً، وفرائض وسننا، وهناك تلازميات بين الفرائض والسنن ومواقعها في خريطة العمل الإسلامي.

والناظر في منهجية القرآن الكريم يجد أنه عني بالنظرة المستقبلية حتى في العهد المكي الذي بدا فيه للناظر المتأمل معاناة المسلمين فيه، لكن القرآن الذي هو كلمة الله الخاتمة للبشرية يهيئ الأمة المسلمة لتكون رائدة ميدان وفارسة مضمار، فهو منذ البداية (يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول، والمستقبل المرتجى، ويبين لهم أن الفلك يتحرك، والعالم يتغير، والأحوال تتحول، فالمهزوم قد ينتصر، والمنتصر قد يهزم، والضعيف قد يقوى، والدوائر تدور، سواء أكان ذلك على المستوى المحلي أم العالمي، وعلى المسلمين أن يهيئوا ويرتبوا بيتهم لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد)^(٥).

والمتأمل لسورة القمر مثلاً ورصدها المركز لغزوة بدر يجد مدى عناية القرآن الكريم بالنظرة المستقبلية، وإرشادها المسلمين لما سيكون بعد سنين، فما بان معنى قوله ﷻ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (سورة القمر: ٤٥) لعمر بن الخطاب وقت نزولها وما فهمها إلا يوم بدر حين رأى رسول الله ﷺ، يثب في الدرع ويتلوها،^(٦)

(٥) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي، ٤١١ ،

(٦) لباب النقول: ٩٩/١.

والتأمل لصدر سورة الروم في قوله ﷻ: ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ سورة الروم: ١/٧؛ يجد مدى حرص القرآن الكريم على توعية المسلمين بما يدور حولهم من أحداث، يترتب عليها كثير مما يخصهم، ويظهر منها أمران: (الأول: مدى وعي المجموعة المسلمة - على قلتها وضعفها المادي- بأحداث العالم الكبرى، وصراع العمالقة من حولها، وأثره عليها إيجابا وسلبا. الثاني: تسجيل القرآن لهذه الأحداث، وتوجيه النظر إلى عوامل التغيير، والانتقال من الواقع إلى المتوقع في ضوء السنن.)^(٧)

٣- إعداد محاضن علمية خاصة بتكوين القادة، على مستوى العلوم الشرعية والاجتماعية والسياسية، وتشرف عليها هيئة عالمية، تستقل ماليا وإداريا عن رعاية دولة بعينها؛ حتى تكون حرة الإرادة، قادرة على الاستقلال العلمي والعملي، كما يفاد في ذلك من الخبرات العلمية العالمية التي تملأ أصقاع العالم الإسلامي وتوضع برامج تربوية وعلمية وعملية تؤهلهم للقيام بالمهمة المنوطة بهم في قيادة الأمة وإرشادها، والأمة غنية بفضل الله ﷻ بالعقول التي تحتاج من يفيد منها والطاقات المؤهلة للقيام بهذه المهمة.

٤- الإفادة من المحاضن العلمية القائمة كل في مجال تخصصه لتكون رافدا من الروافد المهمة في تزويد المجتمع بما يتطلبه من رموز علمية وقيادية تتحمل المهمة أو جزءا منها.

٥- تفعيل دور العلم الكبرى كالأزهر والزيتونة والقرويين والأموي والجامعة الإسلامية ودار العلوم بالهند وغيرها، لتقوم بمهمتها الرسمية والخروج بها من حالة الجمود والهمود إلى حالة الوعي الحقيقي والسعي الجاد لإخراج الأمة من وهدتها والسير بها قدما إلى مصاف الريادة الحضارية.

٦- تفعيل الوقف الإسلامي ورصد قدر مناسب منه لمثل هذا البناء البشري المتين، فلا أولى به منه، ولا أحوج إلى الوقف من هذا المشروع الذي يبني أمة، ويمهد لجيل تتبعه أجيال، ودعوة أهل الفضل إلى المشاركة في هذا الأهم العام الذي له ما بعده من تبصير الأمة برسالتها وتحميلها بمهمتها.

(٧) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة: ٥١١

٧- **توظيف القدر المتاح من الإعلام المسلم لخدمة هذا المشروع الريادي**، يمهّد له ويعلن عنه، ويغري الناس بما له من أثر وفضل، ويساعد في توعية الأمة بخطورة خلوها من هذه القلّة الرائدة، وتوعية هذه القلّة بمهمتها عبر وسائله الجاذبة والمؤثرة، والتي أثبتت تجربة الأيام أن أثره لا ينكر بل لا يقاوم في الخير والشر، وهذا ما عبر عنه "الطيب برغوث" في دراسته المتميزة عن سنن الصيرورة والاستخلاف في ضوء التدافع والتجدد الحضاري في حديثه عن خصائص ومقومات التجدد الحضاري بقوله: (الشرط الثاني في الفعل التجديدي وهو وصل الحاضر بالعصر، خاصة إذا كانت الأمة في وضع المستضعف أو المتطلع إلى الانعتاق من التخلف والتبعية والاستضعاف، حيث يتحتم عليها التواصل البصير مع ثقافة العصر وحضارته؛ استفادة من معطياته وخبراته، وفهما لاتجاهاته ومجالات وآليات الصراع فيه، وارتقاء إلى مستوى التفاعل الواعي معه أو الفعل الإيجابي فيه كلما أمكن ذلك).^(٨)

٨- **استكتاب العقول الرائدة وأصحاب التجارب والخبرات الناجحة في هذا الميدان** من تربويين وشرعيين واجتماعيين وإصلاحيين وكل من له شغل بالهم الإسلامي العام ليقدّم تصوّره في مجاله، ونتاج خبرته موثقاً، وفي الأمة من الخبرات المتناثرة والعقول المهاجرة ما يكفي ويغني إذا صحت العزيمة وسلمت النوايا ويسرت السبل وهذا عينه ما تنبه له شيخنا الشيخ الصادق عرجون في كتابه النافع والماتع (سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم)، حين تسائل - بعد رحلة علمية قوية مؤصلة- عن المخرج لما فيه المسلمون اليوم وقد وضح الصبح لذي عينين، وبان النهار لذي باصرين، وخلص إلى وجوب أن تكون هناك (دراسة تحليلية تصف الداء في لطف لا يزعج المريض، وتضع أمامه الدواء، وذلك في خطة إيجابية يسجلها العلماء ورواد الإصلاح الإسلامي مكتوبة في هدوء الحق، ترفع إلى المسؤولين عن التنفيذ في جميع الأوطان الإسلامية تداع في رفق بين سائر المسلمين ليفهموا دوائهم ودوائهم، وعلى العلماء في صورة جماعية يحققها موسم الحج -وهو المؤتمر الذي أمر الله بعقده- أن يتابعوا السعي وراء هذه الخطة ليتعرفوا العقبات التي تقف دون تطبيقها عملياً، والمشاكل التي تعترضها، ليشاركوا في حلها حلاً لا يهدم بناء دون أن يقيم على أرضه بناء يقوم مقامه وعلى أسس من القرآن الكريم العظيم، ويجب أن تكون الحلول في مستوى واقع الأمة الإسلامية، فلا تخلق في سماء الخيال وتنسى أزمات الأمة)^(٩)

(٨) مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد الحضاري، ٢٨١، ٣٨١.

(٩) - سنن الله في المجتمع، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط الثالثة، ٤١ / ٤٠٤١، حديث الأستاذ أبي الحسن الندوي عن قيادة الإسلام للعالم، فصل نهضة العالم الإسلامي، من كتابه الراقي: ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين،

وقد قدم الشيخ رحمه الله هذه الدراسة السننية الراقية وهذا الاقتراح إلى رابطة العالم الإسلامي وما زال أمله وأملنا معقودا - بعد الله - في الرابطة وكل رابطة تتقدم لحمل العبء وتترود الناس إلى مكان الصدارة والقيادة.

٨- استدعاء تراثنا الحي ليعيش معنا هذه الدورة الحضارية التي تكتب من جديد

حسب التغير السنني في الكون والحياة، وحسب قانون التداول الحضاري الذي رصده القرآن الكريم وعني بتأكيد، ونرتشف منه تجارب القرون الماضية التي ثبت على مدار التاريخ ريادتها وقيادتها لنهضات ظلت قرونا مشاعل نور ومناورات هدى يفيء إليها الناس من شرق وغرب.

(ولا يخفى أن أي خلل في علاقة الحاضر بالتراث الحضاري للأمة، سيجعل حركة التجديد تمتد في فراغ، وستجد نفسها بعد فتور حماسة البداية، وكأنها تتحرك في مكانها، إن لم تتقهقر إلى الوراء؛ لأنها لا تجد السند الفكري والنفسي والاجتماعي الذي يمنحها مبررات الاستمرارية، ويضمن لها حيوية التجدد والاندفاع، ويقبها مخاطر التذبذب والتأرجح بين التيارات الفكرية والكتل الحضارية المتنافعة، الذي قد يفقدها هويتها ويمسحها خلقا اجتماعيا آخر!، ويكفي في هذا السياق استحضر مسار ومآلات تجربة النهضة الحديثة في العالم الإسلامي، وعجزها عن حل معادلة التواصل الأصيل مع الذات، وما نجم عن ذلك من ازدواجية وتذبذب واهتلاك وهدر للإمكانات والإرادات الحضارية للأمة، ومضاعفة لهومها، ومباعدة بينها وبين طموحاتها.. للتأكد فعلا كيف مسخت هذه النهضة مسخا، وأفرغت من محتواها الحضاري الأصيل! ومن هنا فإن الشرط الأساس الأول في الفعل التجديدي، هو وصل الحاضر بالماضي وصلا واعيا، عن طريق استيعاب ثوابت الخبرة الذاتية للأمة، وتمثل روحها واستصحابها إلى الحاضر، وإدماجها في العصر باستمرار)^(١٠)

ص ٧٧٢/ ٨٥٢ .

(١٠)- مدخل على سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد، الطيب برغوث، ١٨١، ٢٨١، نحو حركة إسلامية عالمية واحدة، فتحي يكن، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ٤١/٧٠هـ / ٢٨٩١م، ص ٤٤ وما بعدها.

٨- استلهام حركات الإصلاح والتجديد في العصور السابقة

فلكلّ فضل سبق وبداية الشرارة، على تطاول الرقعة المكانية والزمانية نفيد من كل ما يناسب عصرنا ويزهي حياتنا، فقد كانت وما زالت عند كثير من المنصفين زادا حقيقيا يغري بالتقدم والريادة، وقد قال غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب (...إن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علميا سوى مؤلفاتهم - أي: المسلمين- وإهم هم الذين مدّنوا أوربة مادة وعقلا وأخلاقا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وإهم لم يفقههم قوم في الإبداع الفني) ويقول: (كان تأثير العرب في الأقطار التي فتحوها عظيما جداً في الحضارة، ولعل فرنسة كانت أقل حظا منهم، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حينما يخفق علم الرسول الذي أظلمها بأسرع ما يمكن، ازدهرت فيها العلوم والفنون والزراعة أي ازدهار... ولم يقتصر العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربة من هذه الناحية، ولقد كان العرب أساتذة للأمم المسيحية عدة قرون، وإننا لم نطلع على علوم القدماء إلا بفضل العرب، وإن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل على لغاتنا من لغات العرب)^(١١)، والمتابع لقصة الحضارة لول ديورانت يجد من هذه الأمثلة الشيء الكثير.

٩- الإنسان قبل البنيان والساجد قبل المساجد

من الخطوات العملية التي يجب على المعنيين بمستقبل الأمة في ضوء علم السنن أو علم الاستشراف وما يسميه بعضهم علم الاستراتيجية، أن يكون اهتمام المؤسسات السابقة والجهات المهتمة بهذا الشأن منصبا على الإنسان أولا قبل المناهج والأدوات والوسائل، كما نرى في واقع المسلمين الآن؛ فالإنسان قبل البنيان، والساجد قبل المساجد، ولعل الجد في تلك النظرة إلى الإنسان هو محور الأساس في النجاح والنصر والتمكين، فما يفيد إذا وفرنا مؤسسات تصفر فيها الريح بلا عقول قادرة على إدارتها وملئها بما تحتاجه الأمة من أفكار ورؤى، وما يفيد إذا عددنا من علامات نجاحنا أننا أسسنا من الهيئات والمؤسسات كذا وكذا دون أن يكون لدينا القدرة على الحشد الإنساني، والانتخاب البشري، الذي يزين هذه البنايات الضخمة والصروح الفخمة، كما قال أبو الطيب في بيته الرائد:

(١١) حضارة العرب: ٦٢، ٦٦.

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام^(١٢)

والم تأمل للقلّة الرائدة التي رباها رسول الله ﷺ، يجد اهتمامه بالإنسان قبل أي شيء آخر، فانّصر بهم حين أخرجهم من بدة جفافة إلى رادة وقادة، يعلمون الدنيا معنى الحضارة والمدنية، وبيعثون في نفوسهم معنى العزة والكرامة، وما موقف ربي بن عامر وحديثه عنا ببعيد. فهذا هو مؤثر النصر الحقيقي في تكوين القادة الرادة الذين يقولون في حزم، ويعملون في عزم شأن الجيل القرآني الفريد الذي رباها الرسول ﷺ، بهذه المنهجية القرآنية، وكان مؤشرا من مؤشرات انتصاره، فلقد انتصر ﷺ (يوم أن صنع أصحابه ﷺ صورا حية من إيمانه، تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، يوم صاغ من كل فرد نموذجا مجسما للإسلام، يراه الناس فيرون الإسلام. إن النصوص وحدها لا تصنع شيئا، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلا، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكا، ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجلا لا أن يلقي مواعظ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطبا، وأن يبني أمة لا أن يقيم فلسفة، أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم، وكان عمل محمد أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي وتراهم العيون... ولقد انتصر محمد بن عبد الله يوم صاغ من فكرة الإسلام شخصاً، وحول إيمانهم بالإسلام عملاً، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفاً، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف من القلوب، وأطلقها تتعامل مع الناس وتأخذ منهم وتعطي، وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله من عند الله).^(١٣)

وهذا ما يصرخ به علامة الهند الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه الممتع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، بعد ما شخص الداء ووصفه وصف الطبيب الماهر كأنه يحيا بين ظهراني العرب غدوا ورواحا، فالمهم لديه بل (المهم الأهم لقادة العالم الإسلامي وجمعياته وهيئاته الدينية وللدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين، وإشعال العاطفة الدينية، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى، لا تدخر في ذلك وسعا، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم، كتجوال الدعاة في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارس كتب السيرة، وأخبار الصحابة، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الإسلام وشهادته، ومذاكرة أبواب الجهاد، وفضائل الشهداء)^(١٤).

(١٢) - انظر ديوانه ص: ١١٣

(١٣) دراسات إسلامية، للأستاذ سيد قطب، ط: دار الشروق، ٣٩٣١ هـ / ٣٧٩١ م، ص ٦٢ / ٨٢، باختصار.

(١٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، ط: دار المعارف، ط السابعة، ٨٠٤١ هـ / ٨٨٩١ م،

١٠ - دقة الانتخاب ومهارة الاختيار

كما لا يفوتنا التنبيه على أهمية مصداقية الاختيار، ودقة الفرز لهذه القلّة الرائدة، فما كل من تلقاه يصلح لها، ولا كل فصيح يصيح، ولا كل من يصيح قادر على الريادة والقيادة، فميدان الكلام غير ميدان العمل، وميدان العمل غير ميدان الجهاد، وميدان الجهاد غير ميدان الجهاد المنتج الفاعل المؤثر، فتختار لهذا المشروع الضخم (مجموعة من النوايا المخلصين الذين تتوافر فيهم الصفات العقلية والنفسية والإيمانية والسلوكية، وأن يزيكهم عدد من الشخصيات المعروفة، البصيرة بخصائص الرجال، وأن يعقد لهم بعض الاختبارات المتنوعة تحريرية وشفهية، ويحسن أن يكونوا في معهد يتعايشون فيه ويجيون حياة ربانية، علمية دعوية أخوية جهادية)^(١٥)

ومن خلال هذا الحشد لنوعيات خاصة يمكن أن يختار من بين هؤلاء من يصلح بعد التجربة والاختبار، خاصة بعد الرصد الراقب والمتابعة الواعية من تلمع فيه صفات الريادة والقيادة، وهذا لا يأتي من خلال الجمع العشوائي بل بعد انتخاب أفضل العناصر المؤهلة ثم فرزها ليميز منهم من يتميز، وساعتها يتقدم الحبير المحرب الميداني ليختار على بصيرة ووعي، و(لن تحطى عينك الرائد أبداً، ولعلك تصادف فتى من ناشئة الدعوة لم يبلغ مبلغ الرجال، فتدرك أنه لها، وليس هو بالذي يميز مقدمات الدعوة بعد... أول ما تقع عليه عينك، ومن النظرة الأولى تقول: هذا مبتغاي. ومثل هذا نفتش عن منهجية التربية، ونحاول تلمس المدارج التي تأخذ به صعوداً. لو كانت مجرد صيحة لتركنا كل فصيح يصيح، لكنه علم الدعوة يقول: لا، ليس هو الصياح، ولا مجرد العواطف، ولا قفزات المستعجل، إنما هي أنعام الحداء التي تقود القوافل فتوصلها، ولا بد أن نعلم كل فصيح هذه الصنعة. في الأنعام تجانس وتوافق، وجمال وتناسب، وتدرج واستمرار، من الصفات المتماثلات، ولكن فيها أيضاً من النقائص: السرعة والسكون، والرتابة والتجديد، والعلو والهبوط، وكل هذا التماثل والتناقض لازم لتربية الرائد، فمتماثلاته تؤدي به إلى استواء النفس، ووحدة الفكر واتساقه، ومنهجية السير، والثبات على الارتباط بالمنطلقات الإيمانية الأساسية، وتناقضاته تمكنه من التكيف مع الظرف، والمرونة إزاء المفاجأة، وإتقان التملص والإفلات والفر إذا لم يفتح له الاقتحام ومواصلة الكر)^(١٦)

ص ١٧٢، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة: ٣٧ وما بعدها.
(١٥) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ٤٨، ٥٨، بتصرف يسير.
(١٦) فضائح الفتن، محمد أحمد الراشد، ص: ٦.

١١ - ولا يفوتنا هنا أن نعري القائمين بصناعة القلة بإدامة النظر في تاريخ المصلحين

المجددين، كالأفغاني ومحمد عبده، ومحمد بن عبد الوهاب ورشيد رضا، والسنوسي، الإدريسي والبشير الإبراهيمي، وابن باديس، وبديع الزمان النورسي، وأورانك ذيب، وأحمد السرهندي، والبناء، والمودودي، والندوي، وغيرهم مما يزخر بهم تاريخنا الحديث والمعاصر، والله وحده بيده مقاليد الأمور، وإليه يرجع الأمر كله.

١٢ - أما عن المنهج والمحتوى، فهو واضح وضوح الشمس بيّن بيان الدليل الساطع، والبرهان القاطع، هو نفس المنهج الذي اختاره الله للبشرية، كلها، منهج يجمع بين متطلبات العصر وضرورات الواقع، المنهج المتكامل الشامل لكل جنبات الحياة، فلا يتضخم فيه شيء على حساب آخر، ولا يضم فيه معنى تحيفا أو انتقاصا، (وهو نفس المنهج الذي أخرج من متاهات الجاهلية خير أمة أخرجت للناس، والذي يملك أن يخرج في كل زمان ومكان الجيل القائم على الحق، المجاهد من أجله، الذي لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله) (١٧)

١٣ - الانتقال من طور الكلام والتنظير إلى طور العمل والبناء

فقد ثبت واقعا، أن ميدان الكلام غير ميدان العمل وميدان العمل غير ميدان العمل المنتج البناء، وسيظل الناس وقوفا حتى يقرنوا بين الكلام والعمل، (إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئا كثيرا، ولكن بشرط واحد: أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم، أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم، فداء لكلمة الحق، أن يقولوا ما يعتقدون أنه الحق، إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثا هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها أو غذيناها بالدماء، انتفضت حية، وعاشت بين الأحياء... والكلمة ذاتها - مهما تكن مخلصه وخالقة - فإنها لا تستطيع أن تفعل شيئا، قبل أن تستحيل حركة، وأن تتقمص إنسانا، الناس هم الكلمات الحية التي تؤدي معانيها أبلغ أداء، إن الفارق الأساسي بين العقائد والفلسفات، أن العقيدة كلمة حية تعمل في كيان إنسان، ويعمل على تحقيقها إنسان، أما الفلسفة فهي كلمة ميتة، مجردة من اللحم والدم، تعيش في ذهن، وتبقى باردة ساكنة هناك) (١٨)

وهذا هو السبيل الوحيد الذي ينقل الكلام من ميدان الترف العلمي والسرف الثقافي إلى ميدان الإنتاج الفاعل البناء، ومن ميدان القول إلى ميدان التطبيق العملي الذي يأخذ بيد البشرية إلى مراقبي الصعود والكمال البشري.

(فيإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته، ويتحرر من رق غيره، وإذا كان يطمح

(١٧) نحو حركة إسلامية عالمية، فتحي يكن، ط: مؤسسة الرسالة، ط الخامسة، ١٧٠٤١ هـ / ١٧٨٩١ م، ص: ٢٣.

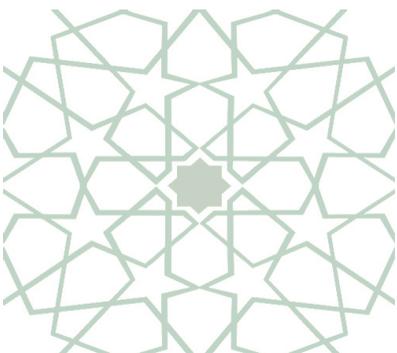
(١٨) دراسات إسلامية: ٩٣١، ٠٤١ باختصار.

إلى القيادة، فلا بد إذن من الاستقلال التعليمي، بل لا بد من الزعامة العلمية، وما هي بالأمر الهين؛ إنها تحتاج إلى تفكير عميق، وحركة تدوين وتأليف واسعة، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر، مع التشبع بروح الإسلام، والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة، إنما هي من شأن الحكومات الإسلامية، فننظم لذلك جمعيات، وتختار لها أساتذة بارعين في كل فن، فيضعون منهاجا تعليميا، يجمع بين محكمات الكتاب والسنة، وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختيار، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وبروح الإسلام، وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد، مما ينظمون به حياتهم، ويحافظون به على كيانهم، ويستغنون به عن الغرب، ويستعدون به للحرب، ويستخرجون به كنوز أرضهم، وينتفعون بخيرات بلادهم، وينظمون مالية البلاد الإسلامية، ويديرون حكوماته على تعاليم الإسلام، بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوروبية، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوروبا عن حلها، وبالاستعداد الروحي، والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته، وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده، فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد، فنتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أي استعداد كل امرئ يجري إلى يوم الهياج بما استعدا^(١٩)

إننا أمة تملك من مقومات البقاء والنماء ما لا يتوفر لغيرها من الأمم، فقط نحتاج أن ندرك رسالتنا ونعرف غايتها، ونمضي بعزم إلى هدفنا بعد وضوح الغاية واستبانة الطريق، وقد رصد الله ﷻ لأمتنا من عوامل البقاء والنماء ما يمدها بمصادر القوة ويمنحها ديمومة الحياة؛ لأنها الأمة الخاتمة، صاحبة الرسالة الأخيرة، والحضارة العالمية، والمنهج الوسط الذي يجمع بين مقولات الدين ومتطلبات الحياة.

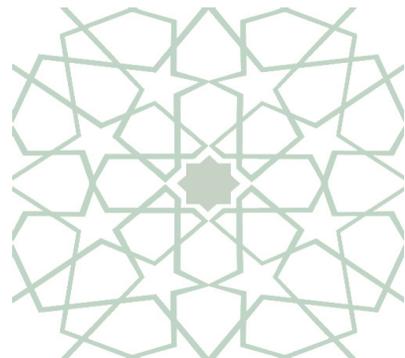
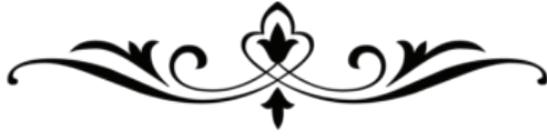


(١٩) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٦٧٢، ٧٧٢.





الخاتمة



الخاتمة أسأل الله حسنها

وبعد هذه الرحلة مع سنة من سنن الله ﷺ وفي ضوء كتابه الكريم، دستور البشرية وهاديها، ومرشدها إلى نفعها وخيرها وحاديها، عرفنا من خلالها مفهوم سنة الله ﷺ في القلة والكثرة، تتبعنا معنى القلة والكثرة لغة وقرآنا، وبان من خلال هذا التتبع مدى التوافق والتطابق بين اللغة ومضامين القرآن الكريم، كما بان من خلال التتبع صفات القلة المحمودة ومدى وعي المسلمين الحريصين على الشهود الحضاري بها والحرص على التحلي بصفاتها، وأن خيطا رفيعا يربط بين القلة المحمودة على تطاول الزمان والمكان، من لدن نوح إلى محمد ﷺ إلى القلة في العصر الحديث، والصحو الإسلامية المعاصرة، كما بان صفات القلة المذمومة ومدى أثرها في فقدان خصائص القلة الحقيقية، ومدى السننية في الأولى والثانية.

كما اتضح من خلال المعاشة صفات الكثرة المحمودة وكيف يفيد منها المسلمون في عصرهم الحاضر، وصفات الكثرة المذمومة وكيف يتقيها من يرغب في الصلاح والفلاح، والسننية المطردة في ذلك.

كما اتضح مدى حاجة المسلمين إلى الوعي بهذه السنة خاصة والسنن عامة، استشرافا إلى مستقبل يكون رائدا كما أراد الله ﷺ، وبان موقف المسلمين من سنة الله في القلة والكثرة، وريادة القلة العاملة وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة، وأن صناعة هذه القلة بات من الواجبات المتحتمة على الأمة المسلمة أفرادا وجماعات وشعوبا وحكومات، ويزداد التحتم على قدر الوعي بمدى خطورة فقد القلة الرائدة، وأن صناعة هذه القلة ليس من المستحيل، بل العالم كله من حولنا يمضي بهذه المنهجية التي سبق القرآن بها ودعا إليها وأكدها، وأن غياب الحكومات الراعية لمثل ذلك لا يعفي النخبة المثقفة والقيادة الفكرية من المسؤولية والمسائلة أمام الله والتاريخ.

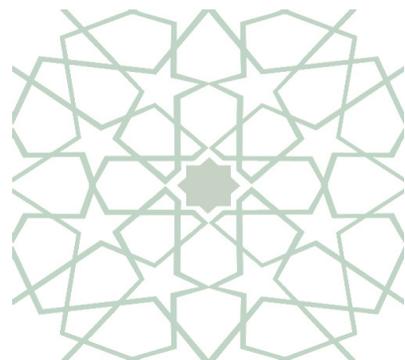
والله وحده بيده مقاليد الأمور وهو وحده المستعان وعليه التكلان.
الفقير إلى عفو ربه والمنسلخ من حوله وطوله وقوته واللائذ بحول الله وطوله وقوته

رمضان خميس زكى الفريب

حائل / المملكة العربية السعودية

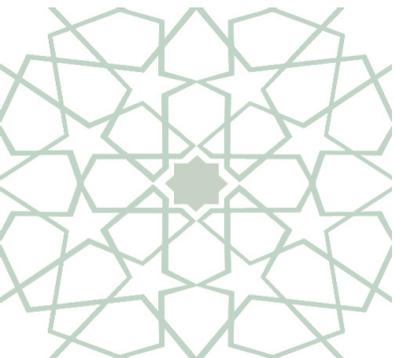
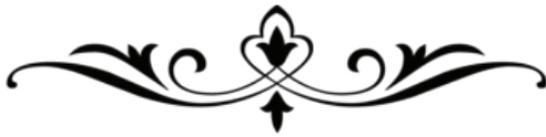
في الخامس من شهر ربيع الأول عام ١٤٣٣ هـ

الثامن والعشرين من يناير ٢٠١٢ م





المصادر والمراجع



أهم المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

١. الإِتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٢. أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.
٤. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٥. بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ).
٦. البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.
٧. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، لحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.
٨. البرهان في علوم القرآن: المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.
٩. المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، د عبد الحليم عويس، ١١٤، ط: مكتبة العبيكان، ط أولى ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
١٠. أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي، ط: مكتبة وهبة.
١١. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب

- الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
١٢. **التحرير والتنوير** «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
١٣. **تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون** - آخر سورة السجدة: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (المتوفى: ٤٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: مجموعة من الباحثين، الناشر: جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠ - ٢٠٠٩ م.
١٤. **تفسير أبي السعود** = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٥. **التفسير الحديث** [مرتب حسب ترتيب النزول]: محمد عزت دروزة: الناشر: دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، الطبعة: ١٣٨٣ هـ.
١٦. **تفسير الشعراوي** - الخواطر: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، (ليس على الكتاب الأصل - المطبوع - أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام ١٩٩٧ م).
١٧. **تفسير القرآن العزيز**: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.
١٨. **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.
١٩. **تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
٢٠. **تفسير القرآن**: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م.
٢١. **تفسير الماوردي** = النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

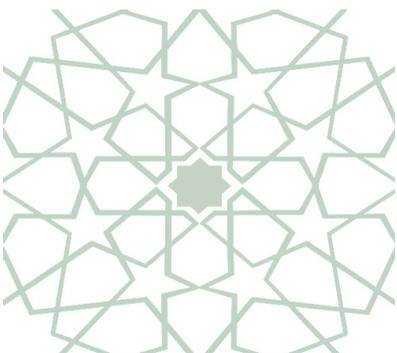
٢٢. تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م
٢٣. التفسير المظهري: المظهري، محمد ثناء الله، المحقق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية، باكستان، الطبعة: ١٤١٢ هـ.
٢٤. تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م
٢٥. تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: ١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ.
٢٦. تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١ م
٢٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.
٢٨. جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
٢٩. صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ
٣٠. الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، ت حقيق: أحمد البردوني إبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م،
٣١. جمهرة الأمثال: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهراة العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت
٣٢. حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ط الثالثة، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧ م.
٣٣. خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
٣٤. دراسات إسلامية، للأستاذ سيد قطب، ط: دار الشروق، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

٣٥. الدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.
٣٦. ديوان المتنبي ط: دار الزهراء، بيروت لبنان، عناية د عبد الوهاب عزام
٣٧. روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوئي، المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.
٣٨. زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
٣٩. سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
٤٠. سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت،
٤١. سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرين الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٤٢. سنن الله في المجتمع، الدار السعودية للنشر والتوزيع، للعلامة محمد الصادق عرجون، ط الثالثة، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ م
٤٣. ٤٣- شرح ديوان أبي تمام للتبريزي، ط: دار الكتاب العربي، ط الثانية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٤٤. شروط النهضة، مالك بن نبي: ٤٧، ط: دار الفكر ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
٤٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٤٦. صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد، ط: دار المحراب.
٤٧. ٤٧- العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.
٤٨. فضائح الفتن، محمد أحمد الراشد، ط: دار المحراب.
٤٩. المدخل إلى التفسير الموضوعي، لأستاذنا د عبد الستار فتح الله سعيد ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط الثانية، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٥٠. **غرائب القرآن و رغائب الفرقان:** نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ١٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.
٥١. **الفروق اللغوية:** أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
٥٢. **في ظلال القرآن:** سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ
٥٣. **القراءات العشر المتواترة،** بمامش المصحف الكريم، محمد علي كريم، ط: دار المهاجر، المدينة المنورة، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٥٤. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:** أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، الكتاب مذيّل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري (ت ٦٨٣) وتخرّيج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي]
٥٥. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن:** أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.
٥٦. **لباب التأويل في معاني التنزيل:** علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخان (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ
٥٧. **اللباب في علوم الكتاب:** أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨
٥٨. **لطائف الإشارات،** تفسير القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم بسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة: الثالثة.
٥٩. **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،** لأبي الحسن الندوي، ط: دار المعارف، ط السابعة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٦٠. **مجمّل اللغة لابن فارس،** المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
٦١. **محاسن التأويل:** المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى:

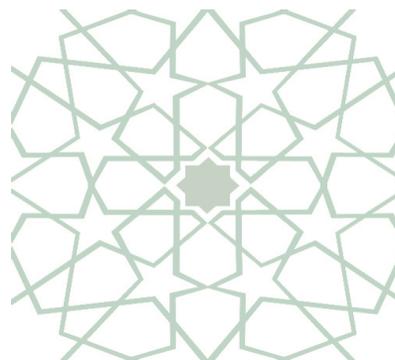
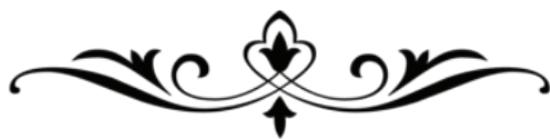
- ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
٦٢. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي الحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ.
٦٣. **المخصص**: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهيم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٦٤. **مدخل على سنن الصيرورة الاستخلافاية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، الطيب برغوث.
٦٥. **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**: محمد بن عمر نووي الجاوي البنتي إقليما، التناري بلدا (المتوفى: ١٣١٦هـ)، المحقق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٧ هـ.
٦٦. **مستخرج أبي عوانة**: أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفرايني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٦٧. **المستدرک علی الصحیحین**: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي السورة طهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
٦٨. **مسند ابن أبي شيبة**: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: عادل بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي، الناشر: دار الوطن - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧ م.
٦٩. **مسند البزار المنثور باسم البحر الزخار**: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرين، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨ م)، وانتهت (٢٠٠٩ م).
٧٠. **معالم التنزيل في تفسير القرآن**: لمحبي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.
٧١. **معجم الفروق اللغوية، المؤلف**: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب «قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ.

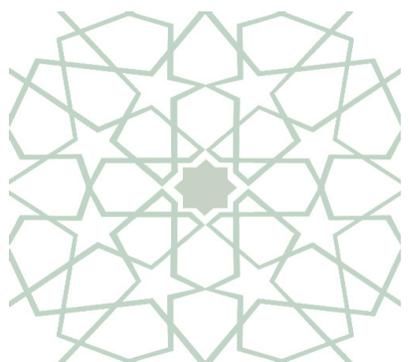
٧٢. معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٩٧٩م.
٧٣. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
٧٤. المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
٧٥. مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير: رمضان خميس زكي الغريب، ط: مكتبة الشروق الدولية، بتقديم د. محمد عمارة.
٧٦. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الثالثة.
٧٧. منهجية التربية الدعوية، محمد أحمد الراشد، ط: دار المحراب، ط: أولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
٧٨. الموسوعة القرآنية: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (المتوفى: ١٤١٤هـ)، الناشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥ هـ.
٧٩. نحو حركة إسلامية عالمية، فتحي يكن، ط: مؤسسة الرسالة، ط الخامسة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٨٠. نهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
٨١. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه: أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٨٢. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم ، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.
٨٣. الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، الناشر: دار الكتب، العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤





فہر س المحتویات





فهرس الموضوعات

٥.....	مقدمة
١١.....	الفصل الأول: القلة: مفهومها، وصفاتها، وسنن الله فيها
١٣.....	المبحث الأول: مفهوم سنة الله في القلة، في اللغة والقرآن
١٨.....	المبحث الثاني: القلة المحمودة صفاتها وخصائصها في القرآن
٤٣.....	المبحث الثالث: القلة المذمومة وصفاتها
٥٣.....	المبحث الرابع: سنن الله في القلة
٥٨.....	الفصل الثاني: الكثرة مفهومها، وصفاتها، وسنن الله فيها
٦٠.....	المبحث الأول: مفهوم سنة الله في الكثرة، في اللغة والقرآن
٦٣.....	المبحث الثاني: الكثرة المحمودة، صفاتها وخصائصها في القرآن
٧٤..	المبحث الثالث: الكثرة المذمومة، صفاتها وخصائصها في القرآن
٩٢.....	المبحث الرابع: سنن الله في الكثرة
٩٧.....	الفصل الثالث: موقف المسلمين من سنة الله في القلة والكثرة
٩٩.....	المبحث الأول: زيادة القلة وأثرها في الشهود الحضاري
١٠٩.....	المبحث الثاني: فقه صناعة القلة الرائدة وموقف الأمة منها
١٢٣.....	الخاتمة
١٢٦.....	المصادر والمراجع

